

شمم بىرام

راز قىي




روايه

Tele: @Arab_Books


راز قبي

المؤلف: شمس بمرام
عنوان الكتاب: رازقي
سنة الطبع: 2016

توزيع  للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts



+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بغداد : حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
 www.almada-group.com . email: info@almada-group.com

رواية

شمم بـيرام
رازقي

غُرْبَة
حُصِصَت التَّرْبَة
سُحِبَت الثَّقَة مِن الرَّبِيعِ
وَأَعْلَنَت الشَّمْسُ مَسْؤُولِيَّتَهَا
عَن اِغْتِيَالِ
الزَّهْرَة

إهداء

إلى بغدادية حسناء
عطّرت صباحات طفولتي
بنفح بات لعنتي
لتلك التي علمتني
أن العطر عشقٌ
والذكرى وطنٌ
إلى إقبال عدنان

الفصل الأول

فتحت عينيها بهدوء وتكاسل، كان حلماً جميلاً يصعب عليها مفارقتة.. ولكن التوقيت اليومي للواقع كان قد بدأ.

شعرت بفرح كبير حين رأت أميال الساعة تقف عند السادسة تماماً، لديها نصف ساعة كاملة للتأمل وشرب قهوة الصباح، حاولت النهوض بهدوء كي لا يستيقظ «هو»، رغم معرفتها التامة بأن نومه عميق جداً... كم تمنّت لو كان كل ما فيه بهذا العمق.

انسلت بهدوء خارجة من غرفتها.

أضافت كلمة «شاي» إلى قائمة التسوّق المعلقة على باب الثلاجة، لم تنفد العلبة بعد ولكنها لن تنتظر نفادها حتماً.. فتحت باب الشرفة لتستنشق تلك النسمات الباردة التي تبث تلك القشعريرة التي تخبرها بأن إحساسها بما حولها لم يتلبّد بعد... شهقت بقوة ساحبة لأكبر كمية ممكنة من الهواء، بدأ النبض يسري في شوارع المدينة، الجميع متوجهون نحو أهدافهم وأحلامهم، بل وحتى مشاكلهم، فهم يخرجون لإيجاد الحلول لها، بينما تبقى هي واقفة هنا، في يوم ما كانت تملك طموحاً هائلاً يوازي كل أحلام من يمرون الآن أمامها مجتمعين لكن...

- ماما ماما.

- صباح الخير يا روجي.

- أرجوك ابعدي صخراً عني، فهو لا يكف عن إزعاجي أبداً،
أخبرته بأني سأشكوه إليك لكنه لم يعرني اهتماماً.

كانت ستتوجه نحو غرفة طفليها حين وجدت صخراً يقف على
باب الشرفة، ومعالم الخيبة واضحة على وجهه.

- سيكون حسابه عسيراً.. اذهبي الآن وابدئي بتحضيرات يومك.

- دوماً تقفين في صف «ود» تنحازين إليها حتى دون أن تسأليني
أولاً.

أطلّ «هو» بلباس نومه الحريري الذي لا يتجدد أبداً، صباحاً تتمنى
أن تعرف ما وراء هذا السر.. عموماً هو لا يتقلب أثناء نومه إطلاقاً،
لا يد أن هذا هو السبب الرئيسي، اقترحت عليه كثيراً أن تنام في سرير
منفصل لتجنبه إزعاج معاركها الطاحنة مع الفراش حتى يشفق عليها
النوم ويزورها أخيراً، لكنه كان يرد عليها في كل مرة: لا عليك فأنا لا
أشعر بتقلباتك إطلاقاً.

وقد تكون هذه واحدة من ردوده القليلة الصادقة التي يقولها.

- لا عليك يا بني فوالدتك تنحاز دوماً للنساء.. سنفهم يوماً سراً
كرهها العميق للرجال هذا.

صوّبت نحوه نظرة خاصة يفقه معناها جيداً، هذه النظرة هي التي

خلصتها من أحضانه ليلة البارحة، وسابقتها في الأسبوع الفائت، أو حتى منذ فترة لم يعد يحسبها، أو يعرف لها عدداً أو رقماً محدداً.

لا شيء يجمعهما، ليس بينهما سوى الخواء، فراغ وسكون موحش، تكسره بين الفينة والأخرى جمل مقتضبة مؤطرة بقوسين، يقولان خلالها ما يودان بسرعة واقتضاب.

حين اقترب من الثلاجة التي كانت تخرج منها ما تحتاجه لصنع الإفطار.. ابتعدت بسرعة وقالت بلهجة آمرة:

عشر دقائق فقط ويكون الطعام جاهزاً، أكملوا استعدادكم خلالها حتى لا يبرد.

التفت هو نحو وُد وصخر:

هيا يا أولاد نفذوا ما قالت أمكم.

ونظر نحوها مكرراً ما قاله..

تجاهلته وبدأت بتحضير الإفطار بطريقتها الآلية المعتادة، سمعت من إحدى قنوات الطبخ ذات يوم أن طهو الطعام بابتسامة يحقق لك انجاز وجبة لذيذة وممتعة، جربت في إحدى المرات هذه الوصفة لكنها أحرقت الطعام يومها، وهذا ما لم يحدث معها من قبل، منذ ذلك الحين عرفت أن ابتسامتها قادرة على خداع الجميع، إلا تلك المكونات التي اعترضت على كذبها وعاقبتها.

Mom..I don't feel well

-عربي..

أجابت دون أن ترفع نظرها عن المقلاة، كانوا قد أنهوا استعداداتهم للتو.

ردت «ود» على أخيها «صخر» وهي تقلب طعامها بهدوء:

- لا تتلکم غیر العربية، أنت تعلم أن هذا يغضب ماما جدا.

- هذا الأمر لا يعنیک.

- توقفوا حالا وتناولوا طعامكما، ستأخران على باص المدرسة.

- ماما اليوم هو يومی المفضل، لدي حصة لتعليم مام، لا أعرف اسمها بالعربية تلك التي نستخدم بها ال....

ألقتها قطعة من الجبن.

- دروس رسم یا ودّ.

- كفي عن الضغط عليهما دعيهما يتحدثان كما يرغبان.

تركت كرسيها وتوجهت نحو إبريق الشاي لتسكب له كوبا.

- أكسرسو لو سمحت، أشعر أن رأسي سينفجر.

ابتسمت بخبث، وهي تؤدّ أن تسأله إن كان معتاداً على شربها في

منزلهم الريفي، في تلك الضواحي المتآكلة، حيث منزل والديه، لكنها
آثرت السكوت، ليس اليوم أو على الأقل ليس الآن وبحضور الأولاد.

رَنَّ منبه الساعة....

- خمس دقائق وسيصل الباص أكملًا طعامكما بسرعة.

ارتشف قهوته الخفيفة وعلَّق قائلاً:

- كوني عفوية أكثر لا مبرر لأن يكون كل شيء محسوباً بالثانية.

- يعجبني تناقضك، ولكنك على حق، فقد تركت عفويتي منذ
وقت طويل، وقراري الأخير الذي اتخذته بهذه الطريقة كلفني الكثير.

تجاهلها محولاً نظره إلى شاشة جهازه اللوحي، ليقرأ آخر أخبار وطن
يبعد عنهم فراسخ ومحيطات، كثيراً ما كرهت هذه الطريقة في معرفة
أحوال أهلها ووطنها، فكيف لنا أن نصدق صحيفة الكترونية تنقل
لنا خبراً مأساوياً بشاشة مضيئة جميلة، يظهر فيها إلى جانب صورة
الشهيد إعلان عن ربح جائزة، وصورة فتاة مبتسمة وسعيدة، كيف
له أن يتفاعل مع مقال لا يترك بصمته الحبرية السوداء على إبهامه، كما
يترك الحداد وقعه على أرواحنا المغتربة.

- لا أريد الذهاب إلى المدرسة، معدتي تؤلمني..

- صخر أمسك بيد أختك وكن حذراً عند صعود الباص..
ستأخران هيا.

- مام.....

- لن أستمع لك....

أغلقت الباب خلفهما، وهي تردد ذات الآيات التي تقرؤها بعد خروجهما كل يوم، كانت تفكر بقلق بما يحدث مع صخر، فخلقه للأعذار المتواصلة للتهرب من مدرسته عادة جديدة لم تعتد عليها منه، تخاف أن يكون هناك سبب خفي وراء ما يحدث، لا نزق الأطفال المعتاد فقط.

توجهت إلى غرفة نومهما لتنظيم ما تبعثر، هنا تبدأ رحلتها المنزلية، نفس الخطوات المبرمجة، وكان أحدهم يضغط على زر إعادة التشغيل كل يوم ويعيد شريط حياتها، حملت صورة كانت قد سقطت من الرف لقطة في مكان مثالي لعائلة مثالية، ولكن هل هم هكذا فعلاً؟

بحثت عن مكان أنسب للصورة حتى لا تقع بمجدداً، خطوة إلى الورا.....

- بسم الله... أرعبتني، منذ متى وأنت هنا؟

- منذ أن التقطت الصورة

- ولم تتسلل مثل لص؟ في المرة القادمة حاول أن تصدر صوتاً.

تجاوزته وتوجهت نحو الصالة، لحق بها إلى هناك.

كنت أفكر وأنا أطلع وجهك في الصورة، هل ستعودين يوماً ما بذات الدفء؟

اقترب منها محاولاً ضمها تجمدت أوصالها، وتحول جسدها الغض

إلى خشبة قاسية، اعتصرت جفنيها بقوة وأنبت أظافرهما براحتها، وهي تكتم أنفاسها، أبعاد جسده عنها دون أن ينبس بكلمة، أغلق الباب خلفه، بقيت جامدة لبرهة، سحبت نفساً عميقاً للتأكد من أن عطره قد غادر المكان لا جسده فقط.

فتحت عينها بهدوء، جلست على الكنب القريبه ضمت الإطار بقوة وكورت جسدها كجنين في رحم أمه.

حين فرغت من غفوتها كان أول ما بحثت عنه هو أميال الساعة، ظنت أن النوم قد سرقها لمدة طويلة، لكن ميل الساعة لم يتحرك كثيراً، شعرت بأنها خرجت من بئر سحيق تحركت بكسل، حلت ضفيريته، مبعثرة خصلاتها على كتفيها كفجرية تحاول إغواء حبيبتها، فهي تضفر خصلاتها يوماً ليلاً، لتكسب بعض التموجات التي لا تدوم طويلاً، فما هو إلا وقت قصير جداً حتى يعود شعرها إلى طبيعته مسترسلاً كشلال منهمر بدون أي عقد أو تنوءات، في أحد أيام الضجر الماطرة قامت بعد الدقائق التي تحتاجها تلك الشعرات العنيدة لخذلانها ستاً وخمسين دقيقة بالضبط، ليس بالوقت الطويل، ولكنها معتادة على ما يحدث، فهي تعلم جيداً أن الخذلان صديق وفي لها لا يستطيع تركها طويلاً.

جمعت الأطباق وهي تفكر بأي مكونات ستكون طبخة اليوم فكرت أن تقوم بفتح إحدى مجلدات الطبخ التي تعطي مكتبتها الصغيرة المعلقة فوق جدار المطبخ، وقد جربت كل الأطباق المذكورة في هذه الأوراق، لا بل أضافت إليها مكوناتها الخاصة بها، ومزجت بين الأنواع بخبرة طاه محترف، يعود الفضل كله لأيام الجوع التي عانتها، تلك التي حولت الطعام إلى هدية تكافئ بها نفسها ومن تحب.

كانت تشارك تلك التجارب الناجحة أحياناً مع جاريتها العجوز التي طالما أحببت العالم الشرقي الساحر، فعلاً إنه ساحر كما تصفه خصوصاً في بلدها الأم، فقدرة الشعب على الحياة في بقعة الأرض تلك تكاد أن تكون ضرباً من الخيال، أو عملاً من أعمال السحر والشعوذة، كثيراً ما فكرت كيف تمكن والدها من إعالتهم وهو ذلك الموظف البسيط الذي كان راتبه لا يتجاوز سعر ثلاثين بيضة وبعض أكياس الخضروات، لم تكن اللحوم متواجدة إلا في وجبات معينة، وغالباً ما تتواجد خلال الأعياد والمناسبات، يتخلى الأب والأم عن حصتهما ليأكل أولادهم الخمسة، والمحظوظ من ينال الحصة الأكبر، عموماً بعد عدة سنين من الوحدة والمشاركة الضئيلة مع العجوز الأجنبية حلت جارة جديدة على مائدتها، عروس جديدة ذات عشرين ربيعاً، غلفوها مزينة لترسل إلى زوجها الذي يكبرها بخمسة عشر عاماً، بثوب أبيض مزركش بشريط ناعم، أسرتها ذات صباح هامسة بخجل، بعد أن طرقت بابها على استحياء (اليوم طلب مني أكلة غريبة لا أظن أن أحداً قد يعلم ماهي مكوناتها غير أمي، لو كانت هنا لسألتها، يريد مني أن أكون مثل أمه وأنا التي انتظرت منه أن يكون أبي الذي حرمتني منه الحروب، كيف لي أن ألد قبل أن أولد؟!) كان سؤالاً ذكياً، ولكنها كانت تمرُّ بحالة من الغباء العاطفي في ذلك الوقت، لذا آثرت أن تجيبها عن مكونات الطبخة القديمة، ففي النهاية طهو الخضار والمرق أسهل بكثير من غلي المشاعر.

وقفت متكئة على جدار المطبخ وهي تنظر نحو الطاولة التي تتوسطه، ثمنت أن تتحلى بالشجاعة الكافية لتركها خالية من الطعام حين عودتهم، وأن تأخذ أولادها لأكل وجبة مليئة بالدهون في أحد

المطاعم، لعلها تؤدي إلى امتلاء ابتها النحيفة، وتحقيق حلم ولدها البسيط، لم تسمح لأولادها أن يأكلوا خارج المنزل أبداً، رغم أن طبيب العائلة أخبرها بأن لا ضرر من تناول وجبة كهذه في فترات متباعدة، ولكنها لن تغامر بصحة أولادها، في كل الحالات لا طبيب غير الأم.

وضعت كرات اللحم في القدر وأضافت إليها وريقات الغار المتبسة وبصلة مزينة برووس القرنفل وعدد من حبات الهيل وتوجهت نحو الشرفة، حين بدأت بسقي أصيص الزهر المعلق هناك، كانت تمنى لو أنها تستطيع أن تهدي جذور تلك الزهور تربة أعمق من هذه، ومساحة لا متناهية كتلك التي كانت تملكها في منزلها القديم، فتمنحها حرية تمنهاها لنفسها أيضاً.

أغمضت عينها وهي تنتشق عبير الزهور، لا عطر يضاهي عطر تلك البيضاء الصغيرة، تلك الزهرة التي رغم ما أهدتها من ألم وذكريات مميتة، إلا أنها تمنى لو تحظى بنفحة منها تعيد لها طمأنينة منزلها القديم، ولهفة شوق مصاطب الجامعة، بحثت عنها مطولاً في جميع المشاتل ومحلات الزهور، حتى قُتل أملها حين أخبرها أحد المزارعين بأنها لو كانت محظوظة بالحصول على عقلة لتلك الشجرة الجميلة فإن مناخ المكان الذي تسكنه وترتبه لن يكونا حليفين لها بل سيخذلانا، سيموت «الـرازقي» هنا.

بالفعل لن تتحمل زهرة رقيقة أجواء قارصة كهذه.

عادت لمطبخها لتنتهي إعداد الغداء بسرعة، عليها التوجه إلى المدرسة ومعرفة سبب ردة فعل صخر تجاه الذهاب إلى هناك مؤخراً، أزالته طبخة الرغوة التي كوّننها غلي اللحم، كم تمننت لو تستطيع كشط بعض

ذكرياتها التي تفسد حياتها كما تكشف الطعم السيء هذا، قلت من لهب الموقد، وتركت المطبخ لأخذ حمام سريع، بينما تحدث الغلية الثانية.

حين أتمت استعدادها للخروج كان اللحم قد نضج تماماً لا وقت لديها للإمام الوجبة، أطفأت النار، وتوجهت نحو الباب للخروج.

لم يستجب الباب لمحاولة فتحه، طلبت منه أكثر من مرة ترك هذه العادة (لا حاجة لقفل الأبواب، أترك عادات السجن هذه، لو كنت أريد الهروب سأفعلها أمام عينك، ولن تستطيع إيقافني، ألسنا في بلاد الحرية كما تقول؟).

فتحت حقيبتها باحثة عن سلسلة المفاتيح، سمعت خطوات تقترب من الباب، لا بد أنه مندوب لإحدى الشركات أو أحد موزعي الإعلانات المزعجة تلك، أخيراً وجدت المفتاح وأدارته في قفل الباب، وما إن فتحته حتى عثرت على علبة صغيرة علقست عليها بطاقة بيضاء كتب عليها: (زهر الربيع، ليورد خريف عمرك)... عبارة كهذه تليق بباقة ورد لا بعلبة شو كلا، لن يتقن هذا الرجل فنون العشق أبداً، أهملت ما بداخل العلبة فالعبارة الغبية هذه وحدها كفيلة بإخماد الفضول نحو طعم ما في العلبة، فتحت هاتفها واتصلت به أجابها بصوت كئيب وبدون أي مقدمات:

- ما هو السبب، هل أخبرتك المعلمة عما...

قطع جملته بحديث مع موظف آخر.

توقعت منه أن يسألها عن الهدية أولاً، هي أدري بعادة التباهي التي تملكه، لم يحدث أن أهدى لها شيئاً دون أن يتحدث هو عن روعته وأهميته لمدة أسبوع على الأقل، كأنه يهدي الهدايا لنفسه فيرضي ذاته ويفرحها، وعلى المتلقي دوماً إبداء الدهشة، عموماً هو أكثر من أدهشها في حياتها بمصائبه قبل هداياه.

فتحت باب سيارتها ورمت حقيبتها وأبقت العلبة معها:

- لم أصل بعد.. فقط أردت إخبارك أنني قد استلمت العلبة.

أي علبة؟!

كانت تحاول فتح الشريط بيد واحدة.

- علبة الـ.....

سقط الهاتف من يدها بعد أن شهقت:

«رازقي»...

الفصل الثاني

كان جسدها يهتز بهدوء على العكس من دقات قلبها المتسارعة، لم تتمكن أستيعاب فكرة ما تحويه هذه العلبة المتربعة في أحضانها، حين أغمضت عينيها لوهلة شعرت بتيار كهربائي يسري في عروقها، سحبت نفساً عميقاً وبدأت بتلمس الزهرة بحذر كأنها تخاف أن تختفي كالسراب حال ملامستها، رغم برودة الجو ونسيانها لتشغيل التدفئة في السيارة إلا أنها بدأت تشعر بالحرارة كأن جسدها يقدح بشرر، شيء واحد أيقظها مما هي فيه، صوت هاتفها وهو يرن.

- نعم حسام؟

- انقطع الاتصال، عن ماذا كنت تتحدثين لم أفهمك.

- لا شيء أستلمت طرداً، لم يكن لنا، على أي حال سأذهب الآن أراك لاحقاً.

أغلقت الهاتف بسرعة قبل أن يبادرها بسؤال آخر، ويكتشف كذبتها، تلك الكذبة التي لم تعرف لها سبباً سوى احساسها بوجود سر يختفي خلف هذا الطرد، أو لعلها كانت تتمنى وجود سرٍ فعلاً، مما كماً تمنست أن يكون طريقها إلى مدرسة ولديها أقصر فهي تشعر بأضطراب

يجتاح جسدها، كأن موجة من الأدرينالين احتلتها فجأة، اختارت اسطوانة هادئة لتشغيلها عليها تهدئ روعها قليلاً، الذكريات تتلاحق في رأسها. بمشاهد سريعة متتابعة، حديقة منزلها القديم، أرجوحاتها، دفتر محاضراتها الداكن وتلك الزهرة البيضاء التي تركت ثوبها الزاهي وارتدت ثوباً شاحباً، ولكنه لا يعيها أبداً بل زادها جمالاً بالنسبة إليها ، ثم ظهرت صورته هو، خُطف قلبها.

ضغطت على الفرامل بقوة وهي ترى امرأة تخترق قواعد المرور وتعب من غير الأماكن المخصصة للعبور.

شعرت بالرعب والغضب في آن، كانت تعبر الشارع مع عربية أطفال بسرعة وتهور، كيف لأم أن تكون طائشة إلى هذا الحد، ألم تعلمها الأمومة المسؤولية؟!

كم تمننت لو أنها تستطيع مجازاة بعض الأمهات ببرودة أعصابهن، هي تدرك كم هو مبالغ حرصها على أولادها، ولكن لا فائدة لن تتغير أبداً رغم إلحاح من حولها ومحاولتهم لأقناعها بالعدول عن تصرفاتها القلقة.

أوقفت سيارتها في المواقف المخصصة للمدرسة، ولكنها لم تترجل منها مباشرة فتحت العلبه من جديد وأستنشقت الرائحة وهي تبسم، أعادتها الى العلبه وتوجهت إلى مبنى الإدارة.

رحبت بها سكرتيرة المدير وطلبت منها الانتظار لحين انتهاء اجتماعه، جلست على الكرسي المتكى على حائط عُلقت عليه الكثير من الصور، وقفت أمامها مكتبة مزهورة رفوفها بكؤوس فخريه فازت بها المدرسة في العديد من المهرجانات والمسابقات المحلية، تركت

مكانها متوجهة نحو تلك الرفوف التي ما إن وصلت إليها حتى ظهر شخص أمامها:

- مرحباً مدام رهف، سعدت بروؤيتك.

ابتسمت له بهدوء.

- اهلاً بك وأنا ايضاً.

كان هذا المعلم هو من أيقن بموهبة ابنتها الصغيرة في الرسم، وأصر على مشاركتها بعدد من الفعاليات الفنية، كانت ود تحبه كثيراً، لدرجة أنها طلبت من أبيها ان يطيل شعره كمعلم الفنون في مدرستها، وبالرغم من دعمه المتواصل لابنتها و سماحته ولطفه، إلا أنها لا تشعر بالارتياح نحوه، هناك هالة من الغموض تلفه، كان يتصرف دوماً كمن يريد الوصول إلى شيء، رغم ثقته بعدم وجود ما قد يجمعهما في الواقع، عموماً هي تشعر بإضطراب شديد نحوه ولا تفسير لديها لكل هذا.

- ما سبب هذه الزيارة الجميلة، هل يمكنني ان أساعدك بشيء؟.

- الحقيقة لا أعرف ولكن يبدو أن صخر يعاني من بعض المشاكل في المدرسة.

- مشاكل؟؟ مثل ماذا؟

- يرفض القدوم ويتحجج بأسباب واهية.

- حسناً ، ولماذا انت في مكتب المدير، سأخذك إلى معلمته مباشرة، ستكون ذات فائدة أكثر لك.

- ولكن...-

- ثقي بي.

أضحكتها الجملة الأخيرة، ولكنها كتمت ضحكتها سراً، فهي لا تتق بالرجال مطلقاً، لم يكن قرارها هذا بسبب أحاديث النساء معطوبات القلوب التي تعرفهن، واللاتي لبسن أثواب الخذلان علناً، دون ان يشعرن بالخزي من موقف الغباء المخرج الذي زججن به، فتراهن يتباهين بالآمهن، ويتنافسن بإظهار عمق جروجهن، وهن يصفن سكاكينهن المؤذية تلك، لم تكن فخورة كما هو حالهن، ربما كانت تائهة جداً ولكنها على الأقل تعلم أن أهم خطوات العلاج الفعالة هي أن تعالج نفسك بنفسك بعيداً عن الكلمات المؤاسية والحلول المتأكلة الكرامة.

كل ما في الامر انها لم يحدث ان ألقت برجل يثبت لها أن الرجولة فكرة حقيقية وليست خرافة أو إحدى نتاجات كتب الفلسفة.

حين فتح مُهلب باب المكتب ابتمت المعلمة، وأشارت لهما بالجلوس، كانت في نهاية العشرينيات من عمرها امرأة بجمال هادئ كما هي ألوان شالها الحريري الذي يغطي رأسها، أصرت رهف أن يكون تعليم أبنائها في هذه المدرسة بالذات، التي تمتاز بكثرة الجالية العربية والمسلمة فيها بشكل عام، يكفي الأولاد ابتعادهم عن لغتهم وعاداتهم بسبب نشأتهم في الغربية.

- مدام رهف، نهى هي المعلمة الجديدة لصخر.

- أهلاً وسهلاً.

كانت تشعر بثقتك شديد ونسيت لوهلة سبب تواجدنا هنا، وبخت نفسها وأبعدت جميع الأفكار التي تحتاج تفكيرها الآن، فلا شيء أهم من أولادها أبداً.

- لن أظلم، سأدخل في صلب الموضوع مباشرة، في الآونة الأخيرة تنبعت لوجود تغير في تصرفات ابني صخر، فهو يحاول بكل جهده التهرب من القدوم إلى المدرسة، يخترع الأعذار ويحاول إقناعي بها...

قاطعتها مبتسمة:

- بصراحة، أتمنى أن تكون ملاحظات جميع الأهالي لأي تغير يحدث على سلوك أولادهم بهذه السرعة، اليوم بالذات كنت أنوي الاتصال بك لهذا السبب.

- كلامك يزيد من حدة توترتي، أتمنى أن ندخل مباشرة إلى الموضوع بدون مقدمات.

كان ردها حاداً جداً، ولكنها وجدت لنفسها العذر، أحد ابنها هو محور الحديث، لا مجال للمجاملات وإطالة الكلام.

- يبدو أنك متوترة جداً، الموضوع أبسط مما تظنين، هي مجرد تصرفات هوجاء من أطفال صغار، ولكن ما أثار استغرابي حقاً هو ما قاله صخر عن لسان والده، فبدأت علامات التساؤل جلية على وجهه رهنف:

- ما الذي قاله؟؟ هل لي أن أعرف؟؟

قام مهلب من مكانه مستعداً لترك الغرفة متذرعاً بأعمال عليه إتمامها.

- مدام رهف ساكون ممتناً جداً إن مررت بسي قبل خروجك من المدرسة.

أومات برأسها بدون تركيز حقيقي منها.

ما أن خرج مغلقاً الباب وراه حتى عادت المعلمة إلى الحديث ولكن بنبرة جدية أكثر:

- كان صخر يحذر صديقه من دخوله النار، وهو يصف عذابها له مما أدخل الطفل بحالة بكاء طويلة، ودفعه أيضاً إلى مقاطعة ولدك وحث باقي اصدقائه على عمل المثل.

- وما الذي جعل صخر يظن أن صديقه سيدخل النار.. لا بد أنه كذب عليه بشيء ما

- للأسف مدام رهف ليس هذا هو السبب...

شعرت بتوتر وصداع قوي ومفاجيء، أخرجت حبتي مهدئ من حقيبتها وابتلعتهما دون طلب كأس من الماء.

- إحذري مدام هذه العادة مضرّة جداً.. لدي زجاجة مياه هنا

- أرجوك تابعي مشكلة صخر...

اهتزاز ساقيها، وتغير ألوان وجهها أثارا قلق المعلمة جداً.

- أفصل أن نتحدث لاحقاً بعد أن تهدئي قليلا، ما رأيك بكأس عصير أو قهوة مثلاً؟

- أنا بأفضل حال تابعي أرجوك، ولاحظي كونك تتحدثين عن ولدي وبموضوع حساس جداً لهذا أرجو منك الإسراع بالحديث فلا صبر لدي..

- بكل الأحوال لن يفيدنا الحديث وأنت بحالة كهذه.

ضغطت على صدغيها، بدأ وجهها بالاحمرار.

- آتسة نهى أرجو أن تستمري بالحديث.

- وأنت بهذه الحالة!.. أنا آسفة.

نهضت رهف من مكانها بانفعال، ضربت الطاولة بقوة:

- برود الأجانب هذا، آنتسي الفاضلة، لا يليق بك، نحن عرب فتعاملي معي على هذا الأساس أو إخلعي هذا الذي فوق رأسك وأصبغي شعرك باللون الأشقر

فتح الباب.. حيث كان يختبئ خلفه.

- مدام رهف.

تركت المكان وتعالى صوتها وهي تخرج قائلة

- سيكون لي تعامل آخر...

لم تأبه بلحاق مهلب بها، ما أن ركبت سيارتها حتى انطلقت بسرعة.
التفت مهلب نحو نهى التي لحقته إلى بوابة المدرسة، قالت بهدوء:
- لا عجب أن يكون ولدها مضطرباً إلى هذا الحد.

كانت بحاجة لأن تهدأ بالفعل، أوقفت السيارة على جانب الطريق،
فتحت العلبه مجدداً، استنشقت شذاها وبدأت دموعها بالانهمار، عادت
إلى هناك، إلى تلك المواقع والأماكن والأسماء، التي خبأتها تحت كومة
من الأيام والسنين، إلى حديقة فقيرة كانت تظنها جنة على الأرض،
وإلى عاشق تصورت يوماً أن العشق خلق لأجله، ووطن خدعت بأجماده
وألفت خداعه، هي التي لم تعرف سوى حب المخادعين.

سمعت طرقاً عنيفا على زجاج السيارة أعادها إلى واقعها، كان
الشرطي المائل أمامها يبدو قلقاً بالفعل:

- هل هناك خطب ما سيدتي، هل تشعرين بوعكة؟

- لا، شكراً لك.

- أنت تقفين منذ مدة هنا، وهذا المكان غير مخصص للوقوف
الطويل.

- احتجت إلى الراحة قليلاً، عموماً سأكمل مسيري الآن.

- ساكون خلفك حتى تصلي وجهتك.

- لا حاجة صدقني .

- أسمح لي ، هذا واجبي .

ابتسمت له وأغلقت نافذتها، كانت تدرك أن كثر رفضها سيثير شكوكه، فاستسلمت لرغبته في النهاية.

حين وصلت شقتها، وقفت قليلاً أمام الباب لم لاتتحدث الأخشاب، كانت لتخبرها على الأقل من قام بوضع العلبه هنا، ما إن أدخلت المفتاح في قفل الباب حتى ظهرت جارتها، خبأت العلبه مباشرة في حقيبة يدها كإثم لا تريد أن يكتشفه أحد، قالت العجوز بقلق:

- أين كنتِ قلت عليك، طرقت الباب مراراً، خبزت كعكتك المفضلة كانت ساخنة، بردت الآن لن تحببها باردة، الين أبنتي أيضاً لا تحبها إلا ساخنة، اقتربت منها مقبله يدها، تحب هذه الجارة الثرثرة الوحيدة، فهي تذكرها بالدتها:

- أحب منك كل شيء، ألم تخبزها بحب؟ ستبقى ساخنة إذاً، سأحضر الشاي العراقي الذي تحبين، وانتظر الكعكة بفارغ الصبر .. لم أتناول أي شيء منذ عشاء البارحة.

ابتسمت الجارة بود ودخلت شقتها.

علب الشاي التي وصلتها من أرض الوطن شارفت على الانتهاء، فبدأت بمعاملتها ككنز مندثر، قطعة أنتيك تحتفظ بها ولا تقوم بعرضها سوى أمام متذوقي جمالها.

وأهم المتذوقين جارتها الأجنبية هذه، فتح هذا السائل الأسود المعطر أبواب حوارات طويلة حول ثقافة بلدها الذي كان يوصف بمرتع الإرهاب والمصدر الأول للأذى، استعرضت ذاكرة الوطن الجميلة أمامها، حرصت على أن تستمع جارتها لموسيقاهم، قالت لها يوماً: لشعبكم ميزة خاصة بتحويل الحزن إلى لغة رنانة وعذبة.

هذا ما عقلت به بعد أن استعرضت أمامها مجموعة من اللوحات بمصاحبة عزف القانون والعود، فعلاً علمتها الغربة أن الوجد داخل الوطن عذب أكثر، إنه محتملٌ قابلٌ للابتلاع لا يقف كغصّة تمنعك حتى من التنفس، على الأقل هناك كَفُّ أمك، صوت أخوتك، بل وحتى صوت مفاتيح والدك مساءً، وهو يقفل باب المنزل، ذلك الأمان الذي لن تشعر بمثل له حتى لو أحطت ذاتك بكل أقفال الدنيا، فالغربة تعريك من ذاتك، تلك أول شروطها لتقبلك.

- رهدف.. أين أنتِ يا صغيرتي؟

- ااااااه، بسم الله.

- آسفة لا بد أني أزعبتك، أنت من ترك الباب مفتوحاً فدخلت مباشرة، أعتذر بشدة.

- لا عليكِ أبداً إنه خطأي أنا، أفتقد لتركيزي اليوم.

أجابت وهي تغسل إصبعها الذي جرحته خاطئة.

- كنت أعدّ السلطة، الحمد لله لم ألوثها بدمي، جهز الشاي انتظرنيني في الشرفة سألحق بك.

كانت تضحك كثيراً لتسمية ذلك البزوغ الصغير بالشرفة، عموماً فهي واحدة من كذباتها الصغيرة التي تعينها على تحمل واقعها هذا، كانت كذبات متقنة فقد أجادت صنع عالم جميل هناك، سجادة خضراء تشبه العشب، كرسيان صغيران تتوسطهما طاولة خشبية وقفص لطير لا وجود له، أحبت القفص فاشترته. كثيراً ما نعتها زوجها بالجنون بسببه: - ما الفائدة من شرائه وأنت ترفضين أن يسكنه أي نوع من أنواع الطيور؟

امتنعت عن الإجابة، بكل الحالات لن يفهمها هو من يستعذب القيود، حتى بات جزءاً منه فهو يقيد ذاته، وكل ما يعود له.

- سأشغل الموسيقى، هل تودين سماع شيء معين؟

- نعم، ذلك المغني الذي سألتك عنه آخر مرة.

ضحكت بصوت خافت، وأسرت داخلها (هذه العجوز بذاكرة حديدية، أعانها الله عليها).

هدل صوت ناظم الغزالي في أنحاء الشقة، وهو يغني معاتباً محبوبه (يا ابن الحمولة.. عليّ شبدلك)

وبدأت بالترجمة كالعادة، لكنها وقفت حائرة عند الوصف الأول كيف سترجمها لتلك العجوز، وهل يوجد أصعب من ترجمة خيال شاعرٍ عراقي.

حين عاد الطفلان إلى المنزل كانت قد أنهت إعداد الغداء للتو.

قال صخر متذمراً:

Mom im hungry

- الطعام جاهز غيروا ملايسكم و.....

قالت ودّ وهي تتقافز حولها.مرح مقلدة صوت والدتها:

- اغسلوا وجوهكم وأيديكم جيداً، وهاتفوا أباكم للتأكد من
قدومه.

ضحكت من القلب وقبلت خديها بحبّ.

- لا حاجة للاتصال، وصلت منذ مدة.

قالها حسام وهو يتكىء على باب المطبخ.

- حسناً، قم أنت أيضاً بذات الخطوات، وسيكون كل شيء جاهزاً
حال انتهائكم.

- لن آكل معكم، كنت في غداء عمل اليوم، أعاني من صداع
سأخلد للنوم.

ترك المطبخ متوجهاً نحو غرفة المعيشة.

- رهف، تركت حبوب المسكن على الطاولة صباحاً أين أجدها؟

لم تجبه، صوت المياه منعها من سماعه، وهي تعيد غسل الأكواب
والملاعق قبل استخدامها.

- رهف، سألتك عن الدواء.

أشارت له نحو الصلاة دون أن تنبس بكلمة.

- لم تلفين إصبعك؟

اقترب ماسكاً يدها، فسحبتها بقوة.

- لا شيء مجرد جرح صغير، ستجد الدواء في حقّيتي أخذته صباحاً
معي.

تركها وعلى وجهه ملامح الحنق.

كانت تنشف يدها حين تذكرت العلية، تركت المنشفة وتوجهت
نحوه وقبل أن تصله.

صاح بصوتٍ متوتر:

- رهف..

الفصل الثالث

كان قد بعثر كل محتويات الحقيبة على الطاولة، وهو يتمم بكلمات
معتزة

- لم انتِ بحاجة لأخذ كل هذه الاغراض معك، عطر، أدوات
تجميل،

شاحن، دفتر وثلاثة أقلام بل اربعة، بالله هل انتِ بحاجة لكل هذا؟
حمدت الله على كونه لم ينتبه للعبة، اقتربت منه بسرعة.

- لا حاجة لكل هذا الصراخ، ها هو الدواء، تستطيع إيجاد كأس
ماء أم يصعب عليك هذا أيضاً؟

انسحب تاركاً كل شيء مبعثراً خلفه، عموماً هي إحدى عاداته،
ولكنها تحمد الله عليها للمرة الأولى، كانت اللعبة هي أول ما أعادته إلى
الحقيبة، تركتها نصف مفتوحة، تُطلّ من زاويتها المنفرجة ورقة بيضاء
لم تنتبه لوجودها من قبل، ترددت لبرهة في فتحها ما أزعجها حقاً أن
تقرأ اسماً أو عنواناً، أن لا يكون وصول هذا الطرد محض صدفة، أن
يكون المرسل ماضيها، ولكنها تجد في ذات الوقت أنه من المؤلم لها ان
تكون المائلة أمامها غلظة مندوب توصيل، ما الذي تريده الآن، هي لا

تعرف ولا تملك الشجاعة لمعرفة ما تريده أو مجرد أن تقف أمام المرأة لتسأل ذاتها هذا السؤال، الذي كُفّت عن ترديده منذ أول صرخة طلق بصخر، تلاشت هذه الحروف الثمانية شيئاً فشيئاً مع كل يوم أمومة، حتى ذلك اليوم الذي استعدت به لترك المنزل حازمة حقائبها واختناق ودّ لحظة وداع والدها، تلك اللحظة فقط أسقطت حرف الدال الأخير بالجملة، تلك اللحظة التي سلبت ضمير المتكلم منها، منذ ذلك الحين وهي تستخدم ضمائر الجمع، وتعريف ذاتها بصفة الأمومة، لم تعد رهف بل هي أم صخر، ثلاثة حروف سلبت منها رومانسية اسمها، عموماً هي تؤمن أن لكل شخص من اسمه نصيباً، وبكل الحالات لم يعد اسم كهذا يليق بها، ورغم كون زوجها هو من اختار هذا الاسم لولده البكر كما يقول وترك لزوجته تسمية الطفلة إلا أنها تشعر بالقوة وهي تنسب اسم طفلها لها كأنه صخرة بالفعل تستند عليها حين تخور قواها.

- ماما أنا جائعة.

- آسفة يا صغيرتي، اجلسي على الطاولة أنا قادمة حالاً.

لم تأكل فعلياً خلال وجبة الغداء، قد تكون كعكة الجارة هي السبب، تلك العجوز هي الفرد الوحيد الذي استطاعت التواصل معه من هذا البلد، لم تكن اللغة هي الحاجز كما هو حال أغلب المهاجرين هنا بل اختلاف بل الثقافة والجذور، تلك الجذور التي أرقتها كثيراً ومنعتها من الاندماج مع واقعها الجديد:

- تشبهين القنفذ كثيراً، عندما يقترب منك أحد تتكورين مظهرة أشواكك.

تردد صدى صوت حسام، وهو يردد كلماته الماثورة هذه، هو من وهبها الأشواك، نبتت على جلدها بفضلها اقتات على دمائها وخياناته، هي من وصفت في يوم كزهرة ملساء باهية، تُرى أنتغير الصفات نسبة للموصوف، أم الواصف؟.

حاولت أن تستوعب الحضارة الجديدة التي فرضت عليها، اللغة، العادات، حتى وجبات الطعام واستبدال كأس الشاي بقهوة بلا ملامح ولا آثار تهيك قراءة المستقبل، ولا تترك آمالاً وأحلاماً، كل شيء جميل هنا كحلم، لكنه بلا أثر كحلم قيلولة قصيرة، وهي امرأة اعتادت على الأحلام التي تصحو منها شاهقة بفرح أو دموع، سأعتاد وأنسى، كثيراً ما وعدت ذاتها بهذا، إلا أن نسيان ذلك الوطن بات أشبه بالمهمة المستحيلة، رغم حنقها على كل تفاصيله واستحالة فهمه، تذكرت فجأة زميلها في صف الفلسفة، كانت من شروط قبولها الهجرة أن تنهي دراستها لم يعارض حسام إطلاقاً، فلم يكونا ينويان إنجاب أطفال في تلك المرحلة من حياتهما، وكان هو مشغولاً بتأسيس عمله الخاص فبدأ هذا الحل الأنسب بالنسبة له، لضمان انشغالها وعدم مرورها بفترة الحنين المرضي للوطن وعائلتها، اختارت الفلسفة لطالما حلمت بدخول هذا التخصص، أجابها والدها حين أخبرته بنيتها: - نحن العراقيين انخلقنا فلاسفة، لا نحتاجين لدراسة الفلسفة، اشربي استكانة شاي مخدر تعطيك الأفكار التي تهز عرش سقراط وافلاطون، يابنتي لا أحد يغامر بالزواج من بنت دارسة فلسفة تخرب كل أفكاره وتصدع رأسه.

وأنتِ يا أم فراس أنصحي ابنتك؟

ندبت والدتها أم فراس القلقة حظها أسبوعاً كاملاً، وهي تردد

كلمات والدها المتخوفة من عدم زواجها، فنوع الشهادة ميزة للعروس ولكن ماذا تضيف الفلسفة إلى ابنة الأسرة الفقيرة التي تنام برفقة أخواتها الخمسة في غرفة المعيشة ليلاً، فلا يوجد سوى غرفتي نوم في ذلك المنزل الضيق، يضطجع الوالدان بوحدة، بينما ينام أخوها فراس في الغرفة الأخرى وحده، فنوم الأخت وأخيها في غرفة واحدة «عيب وحرام» في دستور والدتها المستمد من العادات وكلام الجدة.

لم يكن الفقر وحده ما يقلل حظوتها، فسمارها ونحولها من المتأمرين أيضاً على مصيرها، بحسب نظرية والدتها التي طلبت من أختها صفعها وقرصها على خديها، قبل يوم خطوبتها، عسى أن يتورد خدّها، وتنال إعجاب والدة العريس.

انصاعتم لرغبتهم لم تؤثر على قسم الفلسفة في ورقة التقديم الجامعية اختارت مجموعة من الأقسام التي تؤهلها لإعطاء الدروس الخصوصية، فاختارها قسم التاريخ، لم يعن لها هذا الكثير على كل حال فهي مؤمنة بأن الأقدار هي من تختارنا لا العكس، هذا ما حتمه واقعها وهذه طريقتها لفلسفة خياراتها التي فرضت عليها، سعد والداها كثيراً، ستكون معلمة، سيأتي الطلاب سائلين عن الدروس الخصوصية، وهذا مورد إضافي للمنزل، سيكونون ممتنين إن تحملت مصروفها الشخصي وواحدة من أخواتها على الأقل، تبخرت جميع هذه الأحلام، على كل حال فهي لم تنه دراسة التاريخ، وتركت الفلسفة أيضاً، والسبب كان سؤالاً صغيراً طرحه أستاذها عليها:

- لماذا اخترت الفلسفة يا رهدف؟

- أحتاج للأجوبة، لا أظن أن هناك ما قد ينقذني من دوامة

التساؤلات غيرها، منذ بدايات شبابي وأنا أرغب بها زاد احتياجي لها بعد كل ما حدث في أرضي، ابتسم يومها بهدوء لم تعهده إلا حين وطأت أقدامها هذا البلد.

- فلسفة الأمور لا تحتاج إلى دراسة كتب ترهل من ثقل سطورها... ولا إلى كلمات يفسرها علماء لغة فقط.. يكفيك كوب من القهوة.. عقل متقد يسمح لك بإرجاع الأمور إلى أصولها.. وعكس ما يحدث في اتجاهات أخرى... في أصعب الحالات ستحتاجين إلى كوب اضافي ودخان سيخارة، وسأكفل لك حل جميع مشاكلك العالقة.. إلا مشاكل الوطن هنا ستحتاجين إلى قنينة من مشروب روحي يعوضك عن روحك التي سلبت في تلك الأرض.. وبأقصى الحالات إلى سكين لقطع شريانك الوحيد الذي لم يقطع هناك.

شريانها الذي ودّت أن تقطعه، مائة مرة لكنها كانت تتذكر قول درويش: (لأني إذا مت أخجل من دمع أمي)، كانت تخجل أن تكون سبب دمعة أخرى لتلك العين المتعبة، هي تخجل أيضا من الموت فهو رفاهية مبكرة لها، راحة لم يسبق لها أن جربت مثيلاتها.

أتمت تلميع المطبخ، يبدو أنها قد مسحت الطاولة مرتين، هذا ماقلته ودّها حينما طلبت منها حمل دفتر الرسم والألوان والذهاب لغرفتها، اقتربت منها بدلال:

- ماما لماذا أنت حزينة اليوم؟

صدمت لسؤال ابنتها، أهي حزينة فعلاً؟ مالذي يحدث؟ ألم تقطع على ذاتها عهداً أن لا يؤثر بها شيء؟ أن لا يراها الأطفال بحالة عاطفية

تعبه، كيف لعلبة صغيرة أن تغير كل شيء فجأة، خطر لها أنها نسيت أن تطلب من حسام زيارة مدرسة ولديهما غداً، أم من الأفضل أن تذهب بنفسها وتصحح موقف اليوم الانفعالي، كان تصرفاً غيباً عليها أن تعترف بهذا، تقرير واحد ترفعه هذه المدرسة قد يدخلها بحلقة من التساؤلات بل والتحقيقات والشكوك حول أهليتها لحضانة أولادها، هذه البلاد المجنونة التي قد تحرمك من أولادك بأبسط شكوى، تحرمك من أحقية تأنبيهم أو تربيتهم كما تربيت، ابتسمت وهي تتخيل ما مصير والديها لو سكنا على هذه الأرض، هل كان سيحكم عليهم بإبعادهم عن أولادهم أم السجن؟ قد يكون الحكم مؤبداً، خصوصاً حين كانت والدتها ترمي ملعقة سكب الطعام على بناتها الحبل نزاعاتهن على قطعة ملابس أو لعبة، لن تغامر الآن بعد كل التضحيات التي قدمتها؛ كي لا تُبعد عنهما، ستتوجه غداً لمدرسة الأولاد قد يكون من الأنسب أن تتحدث مع مهلب أو لآبد أن المعلمة قد أخبرته شيئاً، تذكرت تنصته، بكل الحالات فقد يكون هذا لصالحها، علّه يكون وسيطاً بينهما.

الساعة الان تشير إلى الثامنة، إنه وقت خلود الأطفال إلى الفراش لا يزال حسام نائماً يقلقها هذا جداً، سيسهر الليل كله ما يعني انعدام خصوصيتها، أيضاً سيستعر الفراش، لن يرحمها من محاولاته بممارسته العذاب معها فتسمية الحب قديمة جداً وما عادت تصف ما بينهما، لم يجمعهما يوماً العشق، ذلك اللهب المشتعل، لا ينفع أن يعاش مع شخصية مثل حسام، اكتفت بالاعتقاد عليه، بالشعور بالعرفان نحوه والتقبل، كان كل شيء دافئاً لدرجة تسمح بضخ الدم في عروقها المتيبسة حرماناً وألماً، حين رفضت الزواج منه في البداية نصحتها صديقتها:

لا تكوني غبية، لن يمنحك حبك لزاهد جوازاً أجنبياً، لن يخرجك من منزل والدك المتقاعد الذي بات يكتسبُ بكم، لم تعد أجسادكم صغيرة يا رهف، كبرت وتم وكبرت الهموم معكم، ارحمي والديك، ثم لفترض أن زاهد استطاع أن يتغلب على كل الرفض المحيط بكم وكل الحواجز الدينية والاجتماعية، هل ستمكنين أنت من التعايش مع شخصيته الجديدة التي ظهرت أمامك، هل ستنسرين ما مررت به في الموقف الأخير معه، رهف أنت شكوت كثيرا من ازدواجية تفكيره، لن يتغير زاهد في يوم هو الذي نشأ في بيئة دينية وأجبر على دراسة الشريعة لكنه ينهي قنينة مشروب كاملة في ذلك الملهى الليلي كل ليلة، حين تكونين زوجة لزاهد لن تفرق حياتك شيئا عن حياة شقيقاته اللاتي كنت تشفقين عليهن، كل هذه الفرضيات الصغيرة تبعدك عنه، هذه التفاصيل هي ما عرفتها منك، وهي كافية لفهم لم يستحيل الزواج بينكما، أليست هذه جملة الاكثر ترديداً يا صديقتي؟.

غفا الصغيران على ساقها، بعدما كانا يشاهدان التلفاز، هذه هي طريقتهما المثلى دوماً لإنهاء اليوم، تجلس وسط الأريكة الكبيرة، تتوسد ودُ ساقها الأيمن وصخر الأيسر، كانت تشبههم برئتها.

طلبت من حسام المتوسد على الأريكة المقابلة للتلفاز مساعدتها على حمل صخر لفراشه، بينما تحملُ هي الصغيرة، كان متعكر المزاج ولا يزال يشكو من رأسه فطلب منها التريث قليلاً ونقلهم لاحقاً.

لم تجادلها كعادتها، نحت رأسيهما عنها، حملت صخرها وتوجهت نحو سريرها، بينما كانت تتأكد من غطاءه دخل حاملاً ودأ أدخلها الفراش سريعاً واقترب منها هامساً

- ماذا لو حملتك أنتِ أيضاً نحو الفراش ألن يكون هذا رائعاً أيضاً؟
حين أغمضت عينها بغضب ظن بأنها علامة موافقة حملها بين
ذراعيه بسرعة، لم تستطع الصراخ كي لا توقظ الأطفال، قربت شفيتها
من أذنه:

- أفلتني حالاً.

- يثيرني صوتك الهامس، سأفلتك حبيتي ولكن على فراشنا.

- ستجبرني على إيقاظ الأطفال.

- سأسكتك بطريقتي.

- حس.....

لثم شفيتها بقبلة، فحركت ساقها بقوة، أنزلها نحو الأرض، دون
أن تعقب بكلمة توجهت نحو الغرفة أخرجت غطاءً ووسادة تركتها في
غرفة المعيشة وعادت لفراشها مقفلة الباب خلفها بالفتاح.

مرّ قرب الباب وقال هامساً:

- ستسببين بخيانتني لك.

- وكأنك ستفعلها للمرة الأولى، سعيدة لأجلك، تملك سبباً على
الأقل هذه المرة.

توجهت نحو الحمام أتمت وضوءها واستعدت لقضاء الليل مع جبهة الأوحاد، هكذا تحب أن تصف الله دوماً.

لكن زوجها الذي لا يدخر طريقة لاستفزازها اعترض حتى على علاقاتها الروحية بالرب:

- أنت تعانين من إزدواجية حقيقية، تصومين كل هذه الساعات الطويلة، تقضين ليلاً بالعبادة والتهجد ثم تخرجين صباحاً بسرورال ضيق وشعر مكشوف متمايل مع جسديك.

لم تهمها يوماً تعليقاته، تركت خرقه الرأس تلك عن قناعة عميقة ومؤلمة، هي لم تكن تمشي إلى الدين بصلة وقت ارتدائها، كانت واحدة من حتميات المجتمع كونها ابنة منطقة شعبية تجرد من السفارة عارية، وحبسية رجل يدعي الغيرة على العرض والدين، ذلك الدين الذي لم تفهمه سوى حين ابتعدت عن مرتعه، هي اليوم أقرب إلى الله، بل حتى محبوبة منه أكثر.

بدأت تشعر في الآونة الأخيرة أنها مدلتها، هي التي لم تفقه للدلال معنى من قبل.

لم تطل صلاتها، اختصرت أدعتها الليلة، لم تخص المقربين فرداً فرداً ولا أولئك الذين تضمهم قائمتها كل مساء، فكرها مشوش جداً، تلك الورقة البيضاء الصغيرة تسرق تركيزها، فكرت بإتلافها قبل قراءتها:

ولكن هل تملك شجاعة حقيقة كهذه؟

اقتربت من خزانها التي أخفت فيها اللعبة، استلتهما بيد مرتجفة،

بدأت تشعر بأن قلبها ينبض داخل أذنيها، ضجيج الدقات زاد من تشوشها، تجاهلت وجود الزهرة، فتحت الورقة مباشرة.

-أتجيبين الأحاجي؟! -

زاد فضولها، بدا لها أن المرسل يخطط لشيء ما، أي أحجية هذه؟، نظرت نحو السماء داعية.

- يا الله أنا مدلتك، فلا تعذبني.

الفصل الرابع

ملأت كوبها المفضل بالشاي، أغلقته بإحكام وقوة، كانت تمنى لو أنها تملك شبيبتها لعلق بوابة ذكرياتها التي فتحت على مصراعها، بعد أن استلمت تلك العلبة.

لم تهناً بنوم جيد ليلة أمس، رسمت عدداً كبيراً من الاحتمالات المتوقعة، ما نسبة أن تكون يد زاهد هي من وضعت العلبة أمام المنزل؟، ماذا عن حسام؟

فهو يحاول باستمرار كسب ودها بعد ما حدث، خصوصاً وهي تمتنع عن معاشرته منذ مدة طويلة، هل أدى فقدانه الصبر إلى تحويله إلى رجل ذي عاطفة متقدمة؟

لو كان الامر عائداً له لاكتفى بعقد أو أسورة، وفي حال مختلف عن الآن لأهدى لها تذكرة سفر لزيارة عائلتها، ولكنه يخاف أن تكون تذكرة بلا عودة هذه المرة.

أطلت بنظرة تفقدية أخيرة على المنزل قبل الخروج، كل شيء منظم وفي مكانه كالمعتاد، المنزل معطر بشكل جيد الموقد مطفاً، توقفت أمام مقبض الباب لوهلة،

تحول لحن قلبها لقرع طبول حرب تأمل أن تجدد ذات العلبة اليوم أيضاً، حين تفقدت العتبة صباحاً قبل أن تسمح لأولادها بالخروج، كانت خالية تماماً.

لا بد أنه لم يشأ أن يتسبب بإحراجها في هذا الوقت المكبر خصوصاً مع خروج أولادها وزوجها، لن يتسبب لها بمشكلة عائلية أبداً، هزأت من تفكيرها، تتعامل بجدية من طرد قد يكون وصل إليها عن طريق الخطأ، أيضاً ثقّتها بأن المرسل زاهد، كيف له أن يعرف عنوانها أساساً؟!

نفضت الأفكار عنها، تحلّت ببعض الشجاعة أدارت مقبض الباب بهدوء وحذر كأنها تفتح إحدى بوابات القدر، أنزلت مقلتيها نحو الأرض مباشرة.

- لا شيء لا شيء، أي حمقاء أنا؟

- تحدثين نفسك؟؟

كادت أن تفقد أنفاسها، رفعت عينيها، وجدت جاريتها العروس الصغيرة تقف أمامها مبتسمة:

- يبدو أنك أضعت شيئاً، ما هو سأساعدك بالبحث عنه؟

لا شيء، أضاعت أملاً فقط، كيف لها أن تجده تلك المسكينة التي لا تعرف حتى معنى له.

- لا شيء مهماً، أضعت حلقة ليلة أمس، وظننت أنني قد أجده عند العتبة.

- أهو باهظ الثمن؟

ابتسمت نصف ابتسامة.

- لا تقلقي كان مزيفاً على أي حال

ككل آمالي همست معقبة بصوت اقرب لديب غملة...

- يبدو أنك مستعدة للخروج، جئت لدعوتك لمشاركتي فنجان
قهوة صباحية، مع صوت فيروز الذي تعشقين.

- كنت أتمنى أن أشاركك صفاءك عزيزتي ولكن عليّ الذهاب إلى
مدرسة الأولاد.

- هل من خطب؟

- إلى الان لا شيء حقيقياً، قد يكون شقاوة أطفال ودلعاً فقط.

ابتسمت الصغيرة بإشراق، تبدو كالشمس تماماً بشالها الأبيض
الذي لا يتغير لونه أبداً، كان وجهها يتبارى معه بالنقاء وشفاء اللون.

- أنتظرك غداً صباحاً إذاً، ولا مجال للاعتذار هذه المرة.

- مؤكداً يا صغيريتي مؤكداً.

لم يكن فارق العمر بينهما كبيراً جداً، كانت تصغرها باثني عشر
عاماً فقط، ذات العمر الذي يفصلها عن أختها الصغرى، وهو أيضاً
نفس عمر قريبتها التي سرقت استقرار منزلها لفترة من الزمن، إلا أنها
تشعر كأنهن بناتهما، تشعر بأمومة عميقة نحوهن، هذا السبب الذي
سمح لها بمساحة قريبتها على نلاعها مع حسام.

في طريقها نحو المدرسة لفت انتباهها حبيبان يتوجهان نحو الثانوية القريبة، كان يمسك بيدها بكل ثقة لا شيء يخيفهما بالطبع فالحب هنا ليس بالجريمة التي تستحق الإنكار والإخفاء، هو شيء بديهي واجب الحدوث وفي حال غيابه يبدأ الذعر بالحضور، ذات الذعر الذي يظهر وقت قدومه في مجتمعها.

دون تفكير مسبق تتبعتهما، أوقفت السيارة أمام المدرسة، كانت أقرب لشكل الجامعات في بلدها الأم، خصوصاً مع توافر الطلاب من الجنسين معاً، ذلك الالتقاء الذي لم يكن ليتاح لهما إلا بعد إتمام عامهما الثامن عشر، فترى بوابة الجامعة هي أقصى طموح المراهقين هناك، لا لأجل مستقبل وضممان اجتماعي وثقافي ووظيفي معين، فقط لترى الآخر دون أن تكون تحت مساءلة وشكوك العائلة والمجتمع، لتتحدث بعينك كما تشاء وتجرب مسكة اليد وارتعاشة العشق الخفية، حين خطت بوابة الأحلام تلك لم تكن تأمل بتأبط حبيب، فقد جربت الحب الأول وتذوقت القبلة الأولى، وعرفت المواعيد الخفية خلف أشجار بيت العائلة الكبير بعد أن ينام الجميع، رغم هذا ورغم عدم التخطيط المسبق إلا أن الفصل الأول لهما في ذلك المبنى الهائل نسبة لجسدها الضئيل حمل لهما ما لم يكن في الحسبان.

أعادت تشغيل السيارة وأكملت مسيرها، فكرت مطولاً ليلة أمس بعذر مناسب لما بدر منها مع تلك المعلمة المسكينة، ارتأت أن تتوجه أولاً لمهاسب رغم عدم ثقتها بصاحب الجديدة هذا إلا إنها مجبرة على التعامل معه عليها أن تتحمل نتيجة خطئها الفادح.

طلبت من موظفة الاستعلام الاتصال به لإعلامه بقدومها.

- يمكنك انتظاره في الرسم، سيلتحق بك خلال عشر دقائق.

ابتسمت لها، سحبت نفساً عميقاً وخطت متبعة الاتجاه الذي أشارت إليه الموظفة، تعمدت التماهل في الوصول، الانتظار ليس من عاداتها المحببة، إلا أنه كان قريباً جداً، واجهة زجاجية كبيرة يمكنك من خلالها مشاهدة الطاولات الطويلة والمقاعد الملونة، حين خطت نحو الداخل جابت بنظرها على اللوحات التي غطت جدران المكان بالكامل، ثار فضولها أن تقرأ أسماء الطلاب المدونة تحت كل لوحة، علّها تجد اسم ودّ هناك، رغم إمكانية تمييزها رسوم ابتها مباشرة إلا أنها فضلت أن تبحث عن الاسم أولاً ذاك الاسم الأحب لها الأقرب لروحها مرهم جروحها المتآكلة، أحننها أن اسم ابتها لم يعلن عن تواجده رغم ثقته بأحقته لموهبتها المميزة، لا تزال طفلة صغيرة ستقرأ يوماً اسمها في كل مكان، تمني نفسها دوماً بذلك، ولا تدخر جهداً لمساعدتها على تحقيق هذه الأمنية.

توقفت عند رسوم الأطفال مطولاً، ألوان زاهية حدائق ووجوه مبتسمة، ألعاب وعوائل مرحة، في طفولتها كانت تُرغم على رسم الدبابات والجنود، بعض مشاهد الحرب والأعلام المرفوعة كإعلان نصر، نصر زائف وكاذب يتردد مع الأناشيد الصباحية، مع دروس التربية الوطنية التي تعلمك كيف تمثل الوطن بوقت أسرع، كيف تردد كذبات الانتماء التي لا يمكن لك الإيمان بها حقاً، وأنت في هذا السنّ الصغير، حب الوطن كان بحاجة لألوان زاهية كهذه بدلاً عن الأخضر الزيتي المائل للسواد وكل التدرجات الصحراوية الآخري، الانتماء الذي تشعر به نتيجة الحب لا التلقين والترديد والتخويف، مرّ على ذاكرتها مباشرة ذاك المشهد الذي لن تنساه ما حيت، كان خلال واحد

من دروس الوطن تلك حين سألت المعلمة ذات الانتماءات المعروفة
إحدى الطالبات:

- لم تقولين كل صباح عاش القائد يا نور؟

- كي لا يذهب أبي إلى السجن.

أصبنا بحالة ذهول جميعاً، فرغم كون هذا السؤال خارجاً عن
المنهج لكن إجابته معروفة للجميع، إلا ان لهذه الطفلة الهادئة التي لا
تتحرك أو تتكلم دون أن يطلب منها رأي آخر كما يبدو!

سألتها المعلمة:

- وما دخل والدك!؟

- هو يرفض أن نقول عاش القائد، لكن أمي قالت إن علينا ترديدها
في المدرسة، كي لا يذهب أبي إلى السجن ونبقى دون أب.

لم ترد المعلمة على كلامها بشيء استأنفت الدرس كالمعتاد،
واستمرت الدروس طيلة العام بشكلها الريب، الفرق الوحيد أن نور
لم تعد تشارك دروس المدرسة، ومن الوارد جداً أنها لم تعد تشاركهم
الحياة أيضاً.

- مرحباً مدام رهف.

التفتت مبتسمة له فأضاف قائلاً:

- أعتذر عن مصافحتك.

ورفع يديه لإظهار بقع الدهان التي تلطخ كفيه.

- رغم أني أفضل تلطيخك بالدهان، عليك الاعتياد ستعيشين عمراً معه، نظر نحوها بنظرة لم تفهم مغزاها، لم تكن تدرك كيف لعينين بهذا الصغر أن تلتهمها بثانية واحدة.

فتح براداً صغيراً كان بالقرب من مكتبه.

- استغرقت وقتاً طويلاً لإقناعهم بالسماح لي بجلب براد هنا رغم أنه على نفقتي الخاصة، حتى اقتنعوا بحاجتي الدائمة للمشروبات الباردة.

- بطقس كهذا؟

أشار إليها بالجلوس على الكرسي المقابل له، فتح قنينة مشروب غازي بطعم البرتقال، وانحنى ليسكبه في قديم من أقداح الاستخدام الواحد وهو يسمر نظره نحوها.

- تعتريني الحرارة دوماً، ليتني أعرف البرد مثلكم.

ارتبكت من طريقة كلامه ونظراته، قلبت اتجاه شعرها نحو اليسار ثم أعادته يميناً بعد أقل من ثانية.

مشى مبتعداً قليلاً نحو عارضة لوحات مغطاة بغطاء أبيض.

- أقممت مسابقة صغيرة للأطفال، طلبت منهم رسم لحظة السعادة الحقيقية في حياتهم، أذهلتني التقاطة ودّ.

تركت مكانها وتوجهت نحوه، علقت ثلاث لوحات على العارضة كانت العليا لسيدة تتوسط كنبه بينما يغفو على ساقها طفلان.

- اختيار فكرة كهذه وتنفيذها بعمر كهذا ليس بالأمر الهين، حين سألتُ ودقالت بأنها وأخاها ينامان كل يوم بهذه الطريقة بينما تقرأين لهما حكاية ما.

اغرورقت عيناها مباشرة فابتسم هو.

- لهذا حينما أصرت معلمة صخر يوم أمس على التحدث مع المدير والاختصاصي النفسي للمدرسة بعد ما دار بينكما اصطحبتها إلى هنا، أخبرتها ما قالته شقيقة صخر، أفهمتها أنك تمرين بظروف خاصة وأنتك لا تمثلين خطراً حقيقي على أولادك بل العكس تماماً.

- خطراً على أولادي؟!!!!

توجه نحو الكرسي الكامن خلف مكتبه، جلس عليه بثقة ثم بدأ يؤرجحه كالأطفال.

- مدام رهف، تدرकिन طريقة تفكيرهم هنا؟

- وهل تنتمي هي لهم؟

ابتسم وأزاح خصلة من شعره إلى الخلف.

- بالنهاية جميعنا جئنا هنا من أجل الانتماء، أليس كذلك؟

- وهل يعني هذا تبني أفكارهم كمعتقدات خاصة بنا.

- بل يعني تنفيذ قوانينهم واحترامها، يحتاج نقاش كهذا إلى سيكارة
وفنجان قهوة مرء.

- قلت إنك تفضل المشروبات الباردة.

- هناك دوماً استثناءات.

عاد لا بتسامته الغامضة.

- عموماً أخبرتها بأنك ستعودين حالما تهدينين وتعيدين التفكير
بكل ما حدث، وقتها فقط يمكنكما حل الموضوع بروية.

- ومن أين تأكدت بحدوث هذا؟

- حدس..

- وهل تؤمن بالحدس فعلاً؟

- أثق بالحدس والطالع والنجوم والأبراج، بكل الماورائيات
واللامنطقيات، أثق بهذا أيضاً فهو بوصلتي التي لا تخطئ أبداً.

حين أشار نحو قلبه، تسمّرت عيناها على مكان إشارته، تخاف
هذا الموضوع كثيراً بقدر ما تخشى هذا الرجل، حولت نظرها لكل
الاتجاهات، وهي تحاول تجاهل تلك العينين المفترستين.

- سأغيب للدقائق وأعود بها، أتمنى أن لا تكون مشغولة بحصة ما،
فعندها ستجبرين على قبول دعوتي لفنجان قهوة في المقهى القريب
للمدرسة.

- سأدعو الله أن تكون هنا.

أجابت ببديهة وصدق، فقهقه عالياً.

- لم أكن أعرف أن مجالستي مزعجة لك لهذا الحد.

- عفواً لم أقصد هذا أبداً.

أشار لها بيده وهو يخرج من الرسم.

عاودت الوقوف أمام لوحة ودّ الفائزة، كانت تفكر بأنها محظوظة فعلاً محظوظة لدرجة لم تكن تدركها هي لولا هذه اللوحة، هي تدير عائلة رائعة رغم كل شيء، رغم برود الحياة مع زوجها، وخيانتته لكن عليها الاعتراف بأن حياتها أفضل من أخريات كثير، على الأقل هي تملك ما تسامح وتعيش لأجله.

تسامح.. هل عليها حقاً إعطاء فرصة أخرى له؟

عاد بسرعة لم تكن تتوقعها.

- مدام رهف، لك أن تشكري الله الآن، فالآنسة نهى آتية خلفي.

ما هي إلا ثوان معدود حتى أطلت.

- مرحبا مدام رهف.

لم تكن ملامح وجهها مرحبة بها، حتى نبرة صوتها كانت منزعجة قليلاً.

- أهلاً وسهلاً.

مدت رهف يدها للتحية، بينما ترددت المعلمة قليلاً قبل رفع يديها،
رفع علبة السجائر عالياً.

- سأخرج قليلاً خارج المدرسة مع معشوقتي وأعود، أتمنى أن لا
تقع الحرب العالمية الثالثة خلال هذه المدة.

أجابته رهف بسرعة.

كن واثقاً من هذا.

- تعين حدوثها!

توجهت أنظارهما نحو رهف بقلق حقيقي.

بدا الخجل واضحاً على ملامحها.

- بالطبع لا...

- آمل هذا.. البراد لكما فقط احرصا على إبقاء علبة عصير لي.

غمز لرهف دون أن تنتبه نهى التي كانت تولى ظهرها له، تربكها
جراًة هذا الرجل دوماً.

- مدام رهف...

- قبل أن تبدئي، أتمنى أن تقبلي اعتذاري عما حدث يوم أمس.

أطرقت نهى رأسها لبرهة.

- لا عليك، أخبريني مهلب بأنك تمرين بصباح متعب، أتمنى فقط إخباري في حال يمكنكني المساعدة.

من أين له أن يعرف مرورها بصباح صعب هل يتجسس عليها، ثم إن أي تجسس قد يوضح له حقيقة ما حدث، لا أحد غيرها والرب يعرف هذا السرّ، الطرف الثالث الوحيد هو من أوصل تلك العلبة للباب.

- مدام رهف.

تركت أفكارها وحاولت التركيز معها مجدداً.

- أتمنى أن تكوني صادقة معي، هل تعانون من أي عنف أو معاملة سيئة من قبل والد صخر؟

ردت بتعجب.

- إطلاقاً...

نهضت من مكانها و توقفت أمام لوحة ودّ:

- آسفة لسؤالي هذا ولكننا نتحدث هنا لمصلحة أولادك التي أدرك بأنها أولوية لديك.

- اسألي ما تشائين آنسة نهى، ولكن أرجو منك أولاً إخباري عن المشكلة الرئيسية.

- أرجو منك التحلي بالصبر قليلاً.

أومأت برأسها سانحة الفرصة لها للإكمال.

- أعرف جيداً أنكم تتزوجون في بلدكم الأم من طوائف مختلفة،
فهل تتبعين أنت ووالد صخر نفس المذهب؟

أثار هذا السؤال استغرابها، كانت تتوقع أي سؤال آخر، حول
حالتها المادية، الاجتماعية، العقلية لأن يتعلق الأمر بالطوائف، هي
التي هربت من وطن أضحى مرتعاً لهذه التصنيفات، لتقف اليوم هنا
على هذه الأرض التي تفصلها عن هناك قارات ومحيطات لتستمع
لسؤال يتعلق بطائفتها مجدداً.

- آنسة نهى أنا وأولادي لا نتبع مذهباً معيناً ولا ننتمي لطائفة معينة.

- لكن هذا لا ينبطق مع ما قاله صخر لصديقه.

- هل لك أن توضحني الصورة لي أكثر؟

- كنت أتعرف على الطلاب كمعلمة جديدة، حين حان دور أحد
الطلاب الذي يبدو أنه قادم من خلفية متطرفة بعض الشيء فأعلن أنه
مسلم سني على وجه الخصوص فانتفض صخر هنا، وهو يعلن أن صديقه
سيدخل النار لأن داعش من هذه الطائفة سيدخلون النار جميعهم.

ضحكت رهف بصوت مرتفع.

- صخر؟؟ هل أنتِ مؤكدة من كلامك؟! ولدي الذي لا يعرف
حتى الآن ما الفرق بين السلم والمسيحي واليهودي يتحدث بلغة

الطوائف، ولدي تربي وولد هنا يا آنسة، حتى أنه لم يحدث أن سمع حواراً متعلقاً بأمر كهذا مطلقاً.

- أعرف أنه ولد هنا، فقد عدت إلى ملفه بعد تلك الحادثة، وناقشته أيضاً على انفراد.

- هل لي أن أعرف بماذا أجابك؟

- قال إن والده قد قال هذا وقت مشاهدته الأخبار.

طأطأت برأسها، شعرت بدوار وإحساس عال بالخزي، يبدو أنها أهملت أولادها مؤخرأ، صخر بالذات أبعده كثيراً عنها كانت ترى به حسام بكل لفتاته وملاحمه،

حاولت الوقوف فلم تقوَ على ذلك، فعاودت الجلوس مجدداً.

- مدام رهف!!!

استجمعت قواها، أشارت لها بأنها بخير، حملت حقيبتها واستعدت للخروج.

- أشكر صبرك واهتمامك آنسة نهى، سأناقش والد صخر بخصوص ما حدث، وبالنسبة لصخر أتمنى أن يتم التعاون بيننا ليعاود نشاطه ووجه للمدرسة.

- لا تقلقي مدام، أنت تعرفين الأطفال جيداً فهم ينسون بسهولة، وسأعمل أنا أيضاً على تغيير فكرتهم هذه، ولكن أرجو منك الانتباه مستقبلاً....

تركت المكان دون أن تستمع حقيقة لآخر نصائح المعلمة، شعرت بدوار قوي، بدت كمن يترنح إثر سكر، بدأت تسعل بشدة، أحست باختناق حقيقي، حاولت أن تخرج بسرعة قدر استطاعتها، زاد اختناقها، شعرت أن عطراً مستخلصاً الورد يملأ رثتها، اختفت ممرات المدرسة، شوارع طويلة بدت تتجلى أمامها، قدور عملاقة، نساء متعرقات يهرسن اللحوم والأحزان، حبال من أضواء دقائق ساعة، قبة منارة، شموع وصليب كأن يداً خفية تضغط على رقبتها، تسارع نبضها بشدة اتكأت على سياج المدرسة الخارجي، عينان تقتربان منها، نظرات شهوانية، بخور رجل مخضب اللحي يقترب منها فتتحول لحية الحمراء إلى لهيب، يهمس لها بتودد ماجن (سأعقد قراني عليك، صورياً فقط، تذهيبن معي إلى بيت الله الحرام، سيخرج الجان منك ما أن تطأي أرض الله الطاهرة).

اختفى كل شيء حين حلت كف على كتفها فصرخت كجنين يولد للتعو.

- اتركني.....

- رهف.. رهف هل أنت بخير؟

اتسعت حدقتها خرت جالسة، ساقاها غير قادرتين على حملها، استمرت بتحريك كفها حول رقبتها كأنها تحاول التأكد من عدم وجود جبل حولها، سحبت نفساً قوياً كغريق مد له طوق النجاة.

- آس..فة.

بقيت مكانها لدقائق، كان مهلب ينظر نحوها بخوف
وتوجس، حاولت الوقوف، لكنها فشلت، مديده لها.

- أنتِ بخير، فقط استندي عليّ، سأوصلك إلى المنزل.
هزت رأسها رافضة.

- أنا بخير، سيارتي قريبة، بنفسى سأذهب بنفسى شكرًا.

- لن أسمح لك بالقيادة هكذا، هيا سنذهب لشرب فنجان قهوة
وستخبريني بما حدث، هل أزعجتك نهى؟

- لا شيء.. كلا.. لا....

- لن يفيدك أي رفض، أعطني يدك لو سمحت.

تركت يده الممدودة معلقة بالهواء، تجاوزته متوجهة نحو سيارتها،
لحقها دون أن يعبا بتجاهلها له، أسرع الخطى وتوقف أمام باب سيارتها،
أشار لها لإعطائه مفاتيح السيارة.

- سنذهب لشرب القهوة، وأنا من سيقود، وبحالة رفضك سأضطر
إلى الاتصال بالشرطة لضمان سلامتك.

يده المملخة بالألوان، تسريحة شعره، بنطاله الممزق، وقميصه
الصيفي ذو الأكمام القصيرة في هذا المناخ قارص البرودة، تبدو هذه
التفاصيل كافية لتأكيد جنونه وإمكانية فعله لشيء كهذا بسهولة.

أعطته المفتاح بتردد، وتوجهت نحو الجهة الثانية من السيارة.

- لا تقلقي لن أختطفك سنذهب لمقهى قريب، تحسن حالتك ثم أطلق سراحك، توصليني للمدرسة مجدداً قبل بدء حصتي التالية، فأنا معلم منضبط جداً.

ابتسمت بطريقة باهتة، لا تستطيع التركيز بكلماته، كل ما يشغلها الآن خطر عودة النوبة؟ عولجت منذ مدة، طبيبها النفسي هو من أخبرها بأنها بخير، حتى أنها ابتعدت عن الضغوط كما طلب منها.

لفت انتباهها بحثه بين جوانب كرسيه.

- هل من خطب؟

- أبحث عن قرص فيروز؟

- ولم أنت متأكد من امتلاكك لواحد؟

- أين هو؟

- أجبني كيف لك أن تعرف ما أملك هنا؟

- أعرف ما أملكين.. وما تحلمين بامتلاكه.. أعرف الكثير، فقط

تقي بي.

الفصل الخامس

اعتراها شعور غثيان قوي، فتحت باب السيارة، سحبت نفساً كافياً لسحب كل هواء المدينة، بقيت واقفة بتردد أمام المقهى. ماذا لو مرّ أحدهم؟ ما هو موقفها لو تم سؤالها عن مهلب كيف سيبدو موقفها حينها؟.

- ألا زلت تشعرين بدوار؟ يمكنك الإمساك بيدي، تشبثي جيداً فأنا طوق نجاتك.

أي مجنون هو، بقيت تحديق به لوهله.

- أظن أنك تفكرين بمدى جنوني، أو قد يكون هناك سبب آخر لتنظري لي بهذه الطريقة؟

أعقب كلامه بغمزة أخرى.

نظرت نحوه بغضب.

- لنعد إلى المدرسة لا بد بأنك تأخرت.

- لا تخافي ستكون القهوة على حسابي، يقال إن العراقيين كرماء، من أين ورثت هذا البخل؟ أم هي عادة مكتسبة... من زوجك مثلاً؟

رفعت رأسها بسرعة مدهوشة منه.

- منذ الصباح وأنا أستمع لكم وأنتم تتحدثون عن حسام بسوء؟

ابتسم باستهزاء.

- يقول طالعك اليوم بأن غضبك من الشريك قد طال وأنت بحاجة
لأخذ قرار مصيري.

اختارت طاولة تؤمن لها تغطية كاملة عن عيون مرتادي المقهى.

- ما نوع قهوتك؟

- يبدو أنك منجم جيد، أيعقل أن تفصيلاً كهذا يصعب عليك
كشفه؟

- لست منجماً أنا قارئ جيد فقط.

- قارئ!!

- نعم، لست قارئ كتب مملة، أنا أقرأ الأرواح.

- رسام، منجم، وطبيب نفسي.

- وساحر أيضاً.

أعقب كلامه بثقة، فأجابته بتحاذق.

- تجيد ألعاب الخفة، سيجنُ صخر لو عرف هذا.

- يبدو أننا سننهي حديثنا بهذه الطريقة، أيمتلك أن أبقى واقفاً هكذا؟

طأطأت خجلاً.

بقيت تطالع وجوه المرتادين خفية كمحقق سري في أحد الأفلام القديمة، كانت تبحث عن وجوه مألوفة لتختبئ عنها، أو تكون سبباً منطقياً لهروبها من هذه الورطة التي زجت بها، حولت نظرها نحوه كان يقف بالقرب من العاملة المسؤولة عن الطلبات التي سرقت اهتمامها بجمالها الغامض، حاولت أن تحزر منبع أصولها الحقيقية، هذه اللعبة التي لطالما أمتعتها في غربتها، إرجاع الوجوه لجذورها، تورقها الأصول، تسبب لها فصاماً حقيقياً تهمها وتمقتها، تركت وطنها نتيجتها، ورغم ذلك، ترفض كل ما لا ينتمي لأصل الوطن، قطعة الأرض تلك التي أورثتها كل عقدها، تلك التي هربت منها، لتجدها مختبئة بين طيات متاعها.

- تسرحين كثيراً

- شكراً، القهوة تكفي..

ردت حين دفع بصحن من المعجنات الصغيرة أمامها.

- أجدك أعمق من فوييا السمنة والوزن.

- ومن قال اني مصابة بها.

- لا يرفض صحناً كهذا غير المصاب بها.

ابتسمت وهي تفكر بعقدة العظام الناتئة التي عانت منها لزمنا طويل، هي التي حلمت كثيراً بجسد ممتلي، تذكرت جملة حكيمة حول هذه الحالة، تلك الجملة التي كانت ترددها عمتها كثيراً، تلك المرأة التي وصلها جسد خطيبها بصندوق خشبي يحوي أشلاءه، هذت كثيراً منذ أن غطت بفسطان زفافها ذلك التابوب، وبقيت على هذيانها، هذيان يحمل واقعية يخشى منها العاقلون، لكنه كان تميمة حماية لها.

- ألم أقل لك.. تسرحين كثيراً.. لو سجلت كل الكلمات التي تخطر لك الآن لأتممت كتابة عشرة مجلدات في شهر واحد.

- أنا... في الحقيقة..

تلكات إجابتها.

- يبدو أن الأفكار تتزاحم جميعاً فتضيق بها المخارج.

أنزلت فنجان القهوة من يدها

- لا فقط تأخرت، عليّ الذهاب حقاً.

- بهذه السرعة؟ سيكلفك استعاجلك رؤيتي مجدداً

نهضت من مكانها دون أن تجيبه أو حتى تفكر بالنظر نحوه، قطعت نصف المسافة نحو سيارتها ثم توقفت لبرهة.

- أتفهم تماماً أنك نسيت مسؤوليتك بإيصالي إلى المدرسة، ولكن ما ذنب هذه الحقبة مثلاً كي تهمل بهذه الطريقة؟

- أنا آسفة حقاً و.....

- أعترف بأني شخص طماع وانهازي، لذا سأستثمر أسفك هذا لضمان دعوة منك، على وجبة طعام عراقية مثلاً، غداء معتبر لشخص مسكين مثلي.

- ولكن لا توجد مطاعم تقدم وجبات كهذه في المدينة هنا، على الأقل على حسب معرفتي.

- ومن تحدث عن المطاعم؟

تركها متوجهاً نحو السيارة، مستعداً لتولي القيادة، توقفت مكانها وهي تستغرب إمكانيته على فرض ذاته بهذه الطريقة، أنزل زجاج السيارة، أشار بيده حائساً إياها بالإسراع، تقدمت بتردد وهي تدعو الله أن يمر هذا اليوم بسلام دون أن يراها أحد، الاختباء من الأعين، الخوف حتى من نظرات العاصفير، شعور اختبرته قبل سنوات بعيدة، حتى كادت أن تنسى كيف يكون.

اعتمدت إنزال شعرها على جهتي وجهها لتلايمزها العابرون، أخذها التفكير بعيداً بتلك العقد النفسية التي تزرع بداخلنا، نخاف العابرين، نخاف المقربين وكل ما يقع بينهما، كل من يمشي على ساقين هو مصدر رهبة، لذا ما إن ننفرد بذواتنا فنحن نمارس الكباير براحة لا يشوبها غير قلق اكتشاف الآخرين لها، ثم ماذا؟ ماذا لو لم نكتشف لو ستر الله أفعالنا بغطاء، كيف لنا احتمال رائحة العفن المحبوسة بذلك الفراغ المحيط بنا، تلك التواءات المليئة بالقبح، قد نستطيع إخفاءها والتلاعب بهيئتها إلا أننا لا نستطيع إجبار ظلالنا على اختفائها أيضاً،

ظلالنا جانبنا الأسود الفاضح لأقبح ما نخشاه، أن نكون ضئيلين جداً، أن نضطر أن نخطو فوق جزء منا، أن نبذو متضخمين، ونحن على ثقة بضآلة ما نحن عليه، رغم هذا فنحن نصدق ظلالنا حتى نصدم بمראה الناس، وحقيقة انعكاسنا عليهم.

- سيرتك الذاتية ستنافس ما خطه ماركيز بمذكراته.

حين التفتت إليه كانت قد أحيطت ملامحة بغمامة زاهد، نسيت تماماً كينونته والمكان المحيط بها.

- هل أبدو كشبح لك؟ لم هذه النظرة المهولة؟

- لا.. آسفة لم أفهم ما قلت.

- لا شيء، كنت أقرن ما مررت به وقصة حياة أشهر كتاب القرن.

- وكيف عرفت ما مررت به، جلسة تحضير أرواح أم اختلست النظر لبقايا البنّ في فنجان.

- لا يحتاج الأمر لكل هذا التعقيد، فقط مراقبة صمتك وما يتبعه من تشكيلات في ملامحك كافية لمعرفة ما يدور في فلكك الداخلي.

وكانها لم تستمع لحرف مما قاله

- وصلنا الحمد لله، شكراً لدعوتك ولطفك اليوم.

تجاهلها بالمثل، عمد إلى نزع المطاطة التي يربط بها شعره بهذه اللحظة بالذات؛ كان يعامل الوقت مثلها تماماً كشيء قابل للتمديد،

شيء عديم الملامح والأهمية، ترجلت بعصبية من السيارة بدأت تفقد صبرها بسببه توقفت عند باب السائق بطريقة تحشه على الخروج، لم يعرفها انتباهه أنزل المرأة وربط شعره أمامها، كان يعامل خصلاته كأنها مغزولة من خيوط الذهب، بعناية وإعجاب، حين مد يده لها مصافحاً لوداعه عمدت أن تصافحه بأطراف أصابعها ساحبة يدها بسرعة.

- قودي بحذر.

ضغطت على دواسة الوقود بقوة وعناد، تحاول الهرب بسرعة، وإيصال رسالة بعدم أحقيته بالتدخل في حياتها وإملاء أوامره.

أخرجت القرص المدمج، نظرت معتذرة لفيروز فتحت النافذة رمته خارجاً، كانت ستدفع غرامة باهظة لو أن شرطياً لمحها ولكنها لا تعباً، لا يهمها هذا مطلقاً، كل ما يعينها الآن، تحررها من كل القيود.

وهي مستعدة لهذا مهما بدا الثمن باهظاً.

الفصل السادس

هي تدرك قابليتها السحرية على إقناع الرجال. بما تريد، أصعب الرجال وأشدّهم ضراوة كانت قادرة على ترويضه بكلمة، فتصل إلى غايتها التي تريد، في سنتها الثالثة في الجامعة التي لم تتم دراستها بسبب الحرب الأخيرة، كانت تدرس مادة تدعى فلسفة التاريخ، لم يكن من السهل التعامل مع أستاذ المادة مطلقاً، حتى هيئته العامة كانت توحى بإنزعاج دائم، لم ييسر في يوم عضلات وجهه، أسنانه المائلة للون الخشب كانت تغطي بشارب كَثَّ، عُرف كعلامة فارقة لمتيمين لحزب، كلما ارتفعت درجاتك الحزبية زادت الشعيرات طردياً وصار سوادها أحلك، أخايد مسنين، وشعيرات بلون الشباب بفضل الصبغة الهندية، بطن كسنام جمل مقلوب، وطول يقاس بالأشبار لا الأمتار، كلماته أيضاً لم تكن بعيدة عن هيئته المنفرة تلك، لذا كان جميع الطلاب يتحاشونه، فيما اتخذت هي دور الزاجل بينهم، فهي مفتاح تغيير موعد الامتحان وتقليل عدد الصفحات المطلوبة وتفصيل أخرى تتعلق بذلك المتطلب الذي كان حجر عثرة في طريق الكثير من الطلاب، لذا حاولت أن تساعد الجميع على قدر استطاعتها، ولم يكن هناك مقابل مثلما أشيع بين الطلبة كمجازة لها على ما تفعله لأجلهم، كلماتهم تلك هي ما جعلت زاهد يشنط غضباً وهو يمنعها من الذهاب لمكتبه مجدداً:

- انت لا تعرفين حقيقة هذا العجوز، توقفي عن الذهاب لمكتبه.

كثيراً ما رددت هذه الجملة على مسامعها، وصل الخلاف في إحدى
المرات إلى حد جراح حين ثارت قائلة:

- متشكك ومتخوف كأنك لا تعرفني.

جوابه القاتل حينها هو ما أجبرها على مخاصمته لشهر كامل:

- أعرفك جيداً يارهف وتلك هي المصيبة العظمى.

حل الصلح بينهما، بعد أن طلب أستاذها الزواج منها سراً، تذرع
بحاجته لموافقة زوجته ليكون زوجاً بصورة قانونية، كانت هذه حجته
وقتها، طلبت منه أن ينتظر ردها، أو همته لمدة بأنها تتدلل عليه، خشيت
أن يتسبب رفضها المباشر برد فعل منه يجبرها على إعادته السنة الدراسية
بأفضل الأحوال، فقررت المماطلة حتى تجد حلاً، فتكفل جورج بوش
الإبن بذلك بعد إعلانه الحرب على العراق.

جلست أمام التلفاز موهمة نفسها بمشاهدته لحين قدوم حسام،
كانت تريد الحديث معه حول ما حدث مع صخر، لكن شاشة التلفاز
تحولت لشاشة عرض ذكريات عوضاً عن ذلك، حاولت تغيير مجرى
أفكارها، وجهتها لكيفية فتح مجال الحديث مع زوجها، وكيفية إقناعه
بأن يكون أكثر حذراً باستخدام كلماته أمام الأطفال، طال انتظارها
فتوجهت نحو غرفة النوم، كان مولياً ظهره للباب، لازال الوقت مبكراً
لخلوده إلى النوم، ولكنه يعتمد إغاضتها ضمن رسالته بوضع وسادة
وغطاء على الكرسي المجاور لتسريحتها، كان يخبرها أنه لن ينام اليوم
خارج هذه الغرفة وأن لم يرق لها هذا فيمكنها النوم خارجاً، هكذا
بكل وقاحة وصيبانية.

حملت الغطاء وتوجهت نحو غرفة ولديها، يمكنها أن تنام بالقرب من ودّ بجسدها المختصر هذا، كما كان يصفها قريبها العاشق:

- أنت كقصيدة مختزلة يا رهف، مُختصر كل ما بك، ولكن بطريقة مركزة مكثفة، لهذا لن يفهمك سوى الراسخين في العشق.

اندست بخفة بالقرب من ابتها، بقيت توجه نظرها نحو الوسائد التي تضعها تحت أسرة أطفالها، كانت تخاف أن يسقطوا ليلاً من أسرتهم، رغم أنهم ورثوا صنمية النوم من والدهم، إلا أنها تخاف عليهم لدرجة الهوس، كما قال لها الأخصائي النفسي ذات يوم، أجابته حينها:

- تقول هذا لأنك لم ولن تكون أما في حياتك.

كثيراً ما قلقت من أن يجرب أطفالها جزءاً مما خبرته في طفولتها، النوم على فراش قاس، أن يحرموا مما يحلمون به، أن يمرضوا فلا يجدون الدواء، كانت صيدلية المنزل لديها تنبئ بحدوث كارثة قريبة، أو إغلاق عام لكل المذاخر، هذا الهوس الذي اقتحمها مضافاً لما تملك بالأصل بعد أن أصيب صخر بحمى في إحدى الليالي، وكانت الطرق مقطوعة وكل المحلات والمذاخر مغلقة بسبب الثلوج، منذ ذلك اليوم وهي تختزن الأدوية والأطعمة، رغم اعتراض حسام واتهامها بالمبالغة.

شعرت بوهن و حرارة فجائية تجتاح جسدها، كأن طاقتها تسامت في هواء الغرفة رغم هذا لم تستطع النوم، تركت الفراش كي لا توقظ ابتها بكثرة تحركها، توجهت نحو الثلاجة باحثة عن مشروب بارد، تمست لو أنها تركت صرامتها قليلاً وابتاعت علبة مشروب غازي،

ذاك الذي هجرته منذ معرفتها بحملها لصخر، حفاظاً على صحتها وحرصاً منها على ألا يقتدي بها بعد أن توقفت عن إرضاعه عقب ثلاثة أعوام متواصلة، اليوم فقط تذكرت متعة لذع الغاز للسانها، كان اليوم بأكمله لاذعاً وغريباً، حتى أنه قد يصيبها بالهشاشة مثل تلك المشروبات اللعوب، أخرجت قنينة عصيرها المفضل، لن تحتاج لأن تختار بين الكؤوس، لها كأسها الزجاجي الخاص، لكنها تشعر ببركان في داخلها، تركت كل شيء أخذت القنينة فقط، وبدأت بشرب السائل بنهم عابر صحراء، وهي تتوجه نحو غرفة المعيشة، فكرت بالجلوس بالشرفة قليلاً، لكن درجة الحرارة المشار لها بمقياس الجو المعلق لم تشجعها أبداً، هدأت حرارة بدننا قليلاً بدت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً، جمع من الأفكار يقيم حفلاً صاخباً في رأسها الصغير.

الآن فقط فهمت لماذا تربط أمها رأسها بعصابة وقت حدوث المصائب، هي تضغط على أفكارها فتحجمها وتغير مقاساتها. أرخت جسدها على مقعد عند النافذة، بقيت تراقب الشارع الخالي من المارة، تحسد حجراته على الهدوء المحيط بها، على قسوتها وقدرتها على إبقاء ذاتها صلبة قوية دون أن تتأثر بما يمر عليها، بدأ ضجيج الأفكار يخف ويحل محل الهدوء والنعاس..

أحست أن الأرض تهتز فتحت عينها مرعوبة، الحرب إنها الحرب صاروخ يسقط، انتفضت من مقعدها بسرعة، أرعبت بها ابنتها التي كانت تحاول إيقاظها، احتاجت لبرهة لتستوعب ما يحدث، ودّ، ومكان نومها، كانت دموع ابنتها بدأت بالتكون.

- ماما تأخرنا عن المدرسة، لدي حصة فنون اليوم سيعلنون الفائزين بالمسابقة.

كل ما خطر لها في تلك الدقيقة النظر نحو ساعة الحائط، قبل ساعة من الآن كان موعد الباص، ضغطت على رأسها مجدداً بينما تدفعها ودّ بمحاولة لحثها على التحرك.

أقبل صخر نحوهما فاركأ عينيه، وعلى شفقه ابتسامة ليست من عادته في الصباح.

- تأخرنا وانتهى يا ودّ لن نذهب اليوم إلى المدرسة أليس كذلك يا أمي؟

زاد تشتتها بين سعادة صخر ودموع ودّ، فكرت بأخذهم بنفسها للمدرسة وأن تتحدث للمدير، لكن ما الذي ستخبره به، أنها مشوشة بسبب طرد مجهول! أن زوجها تركها تنام خارج غرفة النوم.. زوجها ماذا عن حسام لقد تأخر هو أيضاً، توجهت نحو الغرفة بسرعة لايقاضه، لكنها لم تجد سوى شذى عطر ما بعد الحلاقة.

- نذل..

صرخت بقوة، كيف له أن يتركها نائمة كيف له أن يعاقبها من خلال الأولاد وبطريقة غبية كهذه، كثيراً ما رددت له:

لو كانت معارك طاحنة بيننا ستبقى حول الطفلين خطوط حمراء
لا تُمس.

عادت ودّ لملاحقتها، احمرّ جفناها الرقيقان وبدت عيناها كبحيرة
حزينة.

— ماما، قد أكون أنا الفائزة فالأستاذ أخبرني أن رسمي هو الأجل
سراً، تخيلي أنني لن أسمع تصفيق أصدقائي.

ابتسمت وهي تذكر اعتلاء لوحها على باقي اللوحات، نظرت
نحو عيني صخر القلقة.

— حسناً سأخبركم بأمر، سنذهب إلى المدرسة الان.

صرخ الاثنان بذات الوقت، ودّ وهي تقفز فرحاً وصخر اعتراضاً.

— ستحضرين دروسك بينما نذهب أنا وصخر لقضاء بعض
الأشغال، التي احتاج معها لتواجد رجل معي.

علت ابتسامة فخر على وجه الصغير.

— هل ستأكلون حلوى التفاح يا أمي؟

— بالطبع لا حبيبتي، سنذهب لشرائها سوياً بعد المدرسة احتفالاً
بفوزك، سأكون هناك لأخذك، لا حاجة للعودة بالباص اليوم.

تعلقت برقبة والدتها وهي تقبلها بقوة، فلحق بها صخر الذي
يرفض أن تكون لأخته الأولوية لديها.

- سنتأخر ولن نكمل كل ما خططنا فعله، هيا ابدؤوا بتجهيز أنفسكم بسرعة، وسأحضر المعجنات لتأكلوها خلال الطريق.

ركض صخر نحو غرفته وهو يقلد صوت طائرة حربية، بينما التفتت ودّ فجأة نحو أمها.

- ماما.. قلتِ بأننا سنحتفل بفوزي، كيف تأكدتِ من هذا؟

استوقفها اتقاد فكر هذه الطفلة وقدرتها على التمييز والتحليل السريع.

- أثق بموهبتك يا حبيبتي، كما أنك اخبرتني ان الأستاذ أسرك بتميز لوحتك، هيا سنتأخر.

حاولت أن تتناسى غضبها من حسام، لن تسمع لما حدث أن يمر مرور الكرام، أخطاؤه تراكم كتلاً أمامها، ومع أي زيادة فيها سينهار دافناً هذا المنزل تحته. أخرجت صينية من الفطائر المجمدة، سيتهي الخزين الذي أعدته قريباً، أي إهمال وصلت إليه حتى إنها لم تتسوق منذ يومين والبراد شبه فارغ.

سمعت صوت سقوط شيء عند باب الشقة، تركت كل شيء وتوجهت راکضة نحوه، كانت تأمل وجود طرد جديد فتحت الباب، فرأته واقفاً أمامها وقد أسقط كيس البقالة.

- حسام؟ ماذا يحدث؟

- أكره الأكياس الورقية هذه، كأنها هي من سيحل أزمة البيئة حقاً، اجلبي لي كيساً آخر يا رهنف.

وهي ترى ما تعثر علي عتبة الباب لمحت العلبة السوداء، عادت لها حرارة ليلة الأمس وارتبكت، صلت بداخلها الا يكون حسام قد انتبه لوجودها.

- أدخل يا حسام سأتدبر أنا أمر الأغراض.

- لا....

تجاهلته وبدأت بحمل الاغراض، بينما توجه هو لداخل الشقة لنقل الباقي، استغلت الفرصة ودست العلبة بجيب رداها المنزلي.

أغلقت الباب لاهثة، وهي تفكر بكل الاحتمالات، هل رأى حسام العلبة، أيعقل أن يكون هو من أسقطها، هو يحاول منذ فترة إرضاءها، ولكن حسام؟! بالنهاية هو ليس ذاك الفتى الرومانسي الحالم ليتبع طريقة كهذه.

وضعت الأغراض على الطاولة واتجهت نحو باب المطبخ، كانت حرارة بدنها بازدياد رغم هذا لم تخلع الرداء عنها، حرصاً على تلك العلبة، التي تخاف عليها ومنها.

- رهف .

التفتت نحو حسام برعب، مثل لص اكتشفه صاحب المنزل.

- أنا آسف على ما بدر مني ليلة أمس، لست سيئاً يا رهف، أنت التي تجبريني على إخراج الوحش داخلي.

لم ترد عليه، ربما في وقت آخر، في موقف مختلف كانت لتؤنّب، كانت ستسأله إن كانت هي أيضاً السبب في خيانتها التي أوصلتهم إلى هنا، إن كانت ...

وضع كفه على وجهها المتورد.

- رهف، هل مرضت؟ وجهك ساخن جداً، وترتعشين...

قلبيها هو المرتعش الآن، تفكر باستدراجه بالكلام لمعرفة إن كان هو من يقوم بوضع هذه العلب.

- منذ متى وأنت تؤخر عملي صباحاً من أجل الهدايا والتسوق.

- شعرت بالذنب، صحوت متأخراً واكتشفت أنك قد مررت بليلة سيئة، لم أجد ما أعد الفطور به فقررت أن أتسوق وأعد الفطور لكم، فكرت بباقة من الزهور، ولكنني وجدت هذا ذا فائدة أكبر لك.

أقبلت ودّ وهي تحمل فرشاة الشعر وربطة شعرها.

- ماما !!! لا تزالين بملابس المنزل ستأخر.

- هل ستأخذينهم إلى المدرسة؟

- ودفقط، سأعود مباشرة، أمني أن تكون هنا نحتاج التحدث قليلاً.

- اتركي صخر معي إذن وساعد الفطور لوقت عودتك.

- حسناً فقط حاول أن لا تسمع أفكاره حين عودتي.

تركته وتوجهت نحو غرفتها حين سمعت صوت صراخه.

- ماذا تعنين بكلامك هذا مهما حاولت أو فعلت لن ترضي في يوم ولن تتفوهي سوى. عمر الكلام، لا فائدة لا فائدة ترجى معك يا رهنف.

سمعت صوت إغلاق الباب خلفه بقوة، لم تحاول إيقافه، كل ما يعينها الآن أن تفتح العلبة أن تتأكد من تلك الزهرة من الرسالة المصاحبة لها، كانت الزهرة متعبة هذه المرة، بحجم أكبر من سابقتها وبعض بتلاتها مائلة إلى الإصفرار.

- لا أعرف لم هي حزينة، تفتحت قبل أخوتها، ابتسمت، ثم تكدرت، لكنها معك ستعود للحياة.

سمعت صوت نشيج خارج غرفتها، غيرت ملابسها بسرعة، وتوجهت نحو ودّ الباكية، كان صخر يضمها على غير عاداته محاولاً تهدئتها.

- بابا ليس شريراً لكن الرجال يغضبون دوماً، بدون الغضب لن نكون رجالاً.

أوقفها تعليق ابنها، الوقت الوحيد الذي يقضيه صخر برفقة والده

وحيداً وقت حلاقة شعره، يصحبه هو للحلاق، لأنه يرى من المعيب أن تدخل امرأة محل حلاقة كما من المرفوض أن يذهب لمحل حلاقة مختلط خوفاً على شخصية ابنه وتحوّله إلى مخنث مستقبلاً.

- نصف ساعة كل عشرين يوم ستهدم حياته، وتضع شخصيته،
والجواب المعتاد:

-إنها مسألة مبدأ.

بدأت تقلق من مبادئه العجيبة ليس خوفاً عليها لكن لأجل الأطفال،
لأجل سلامة وعيهم.

- ما بك يا حبيبة ماما؟

- أرعبها أبي حين صرخ، أخبرتها أن الرجال يصرخون دوماً.

ضمت طفلتها لصدرها وهي تطبط على رأسها.

- ذوات العيون الجميلة، لا تليق بهن الدموع، ستورم أجفانك ولن
تبدي جميلة بصورة الفوز.

كفكفت دموعها وهي تنظر نحو أمها.

- عينك متفختان أيضاً يا ماما ولكنك جميلة.

تحسست عينها لم تنظر إلى المرأة حتى الآن، ليست المرة الأولى
بالطبع، حتى وهي تقف أمام المرأة فهي لا ترى انعكاسها، تمر عليها
أوقات تنسى فيها ملامحها، تلك الملامح التي سرقت عينيه منذ أول

تعارف في كافتريا الجامعة، كانت تطلب كأس شاي حين زاحمها محاولا الطلب قبلها، استجمعت شجاعته لتبدأ شجاراً معه حين أخذ الكأس من يد العامل، سألتها عن مكان جلوسها، فبقيت جامدة، وهي تفكر بجنونه، كرر سؤاله فأشارت له صديقتها التي كانت تراقب الموقف بصمت، توجه نحو الطاولة وضع القدح بمكانه، وعاد لدفع ثمنه، وهمس مقترباً منها:

– هذان الكفان يليق بهما اللمس والقبلات وليس حمل الأشياء.

ثم تلاشى بين جموع الطلاب. توقفت أمام مرآة المصعد، تبدو شاحبة، أشاحت نظرها عنها، قد تكون هي الأنتى الوحيدة في هذا العالم التي تكره هذا السطح العاكس، أخرجت نظارتها من الحقيبة، لتغطي ذبول عينيها، كانت لا تزال حزينة رغم توقفها عن البكاء، لا تزال عيناها تحتفظان باحمرارهما، عيناها اللتان ورثتهما من والدتها، تحملان لون العسل الجلي، برموش طوال تكاد أن تتشابك عند أطرافها، ورثت أيضاً أنفها الصغير المعقوف، كان يبدو مكسوراً، رغم أنه بخير، وكأنه يعكس هيئتها وداخلها المهشم.

استمرت بمراقبة طفليها أثناء القيادة، كانت ودُّ قلقة ويبدو هذا جلياً فيتصالب جلستها وتحرك بؤبؤ عينيها على الطريق، وكأنها تعد المباني للوصول لمدرستها، بينما كان صخر يدعي أنه قائد طائرة حربية تقاتل وتصطدم فيموت العدو، ويظهر آخر مباشرة فيكمل معركته. لا شيء يحفز رجولتهم كالقتال، العداء والألم، يلتحق بالمدرسة فيكون أول ما يضع في رأسه أن يكون قوياً قادراً على إرعاب الجميع كي لا يستضعف، يكبر قليلاً يقتات على خلق

العداوات والازمات، ثم ماذا يتجاوز هذه المرحلة ليدخل مرحلة
آلام العشق كل ما ناح لأجلك عدد أكبر من الفتيات تضخمت
رجولتك وأناك أكثر، هكذا تدور العجلة حتى يكبر ليتخار تلك
المسكينة التي يصب خلالها كل عقده النفسية ويعوض هفوات ما
فاته في كل مرحلة.

- أخيراً وصلنا.

هتفت ود بفرح، بينما فال صخر مرتبكاً:

- ماما سأنتظرك أنا في السيارة.

- بل ستأتي معي يا صخر.

- ماما!!!!

- لن تبقى وحيداً هنا.

- لقد وعدتني بقضاء اليوم معك.

ترجلت من سيارتها، فتحت الباب لهما.

- ومتى أخلفت وعدي؟.

خجلت من جملتها هذه، كانت تعلم بأنها تحمل من الكذب
الكثير، هي من أخلفت وعدها لقريبها العاشق، هي من خذلت ذاتها
بكل وعودها الكاذبة، سأكون امرأة ذا شأن، أتزوج زواجاً ناجحاً، إذا
ما تجرأ زوجي يوماً على جرحي سأهجره، حسناً، حسام لم يجرحها،

فقط قتلها، سلبها روحها، أي تعلق روعي هذا الذي جعله يضاجع غريماتها حتى عبر الأثير، هكذا بكل وقاحة وعري، هو الذي يرى أن المداعبة أساليب ناشئة، كانت قليلة أدب حين طالبت بحقها، لكن قرينتها كانت منزهة طاهرة، وعشيقته الأخرى أيضاً ذاك الملاك الذي يداوي جراح المنكوبين.

توجهت برفقة طفليها نحو غرفة الفنون تأخرت بواقع عشر دقائق عن بداية الدرس، قبل أن يطرقوا الباب توجه مهلب لفتحه.

- لم تأخرتِ يا ود كنت سأعلن الفائزين الآن.

..SORRY MR. MY MOM WAS-

- أتأسف منك، أنا من تسببت بتأخرهم، كنت سأبقيهم اليوم في المنزل لكن ودّ أصرت على القدوم من أجل المسابقة.

أقترب منها متحدثاً بهمس.

- هل أنتِ بخير؟.. أعني هل كل شيء على مايرام؟

- لا شيء يهم...

أبعدت نظرها عنه، كان يحاول اختراق روحها بنظرته تلك، يحاول أن يقتلع الكلمات من جذورها الداخلية.

- صخر؟؟ لم لست في فصلك؟

- سيبقى اليوم معي.

- ولكن....

- لا أود أن آخذ المزيد من وقتك.. سأذهب الان.

- مدام رهف، كنت بحاجة للحديث معك.

لم يستطع تفسير نظراتها، كانت بين المفاجأة والغضب.

- أعني بخصوص ود، هناك معهد للرسم و.....

تعالى ضجيج الأطفال، حاول إسكاتهم لكن دون جدوى.

- سنتحدث لاحقاً أستاذ مهلب لا أجد الوقت مناسباً لهذا.

- سانتظرك بعد الظهر نرتشف قهوتنا وتوجه نحو المعهد.

- أستاذ مهلب أنا مشغولة اليوم، سأمر عليك في وقت لاحق

لنتناقش حول هذه المسألة..

- الموضوع لا يتحمل التأجيل، سانتظرك اليوم الساعة الرابعة

والنصف بذات المقهى.

عاد مباشرة لطلبته، أشارت ودّ لها لتبتعد، يحرجهما أن تبقى والدتها هنا فيعيدها الأطفال لكونها تُعامل كصغيرة، هكذا هم البشر دوماً يشتاقون للكبر يعيدون الأيام لأجله، وما إن يصلوا إلى أعمار النضج، حتى يعودوا للتصابي وإنكار تراكم السنين فوقهم، لم يربحها يوماً تقادم العمر تلك الخطوط الدقيقة التي تهديها بشرتك لك، ما إن تطفئ شمعة الثلاثين لم تقلقها، حتى إنها لم تنتبه لها يوماً، إلا أن ابتها هي

من صدمتها بهذه الحقيقة حين رسمت بعض الخطوط البدائية قرب عينيها في إحدى المرات، كانت هدية عيد الأم صورة مرسومة بألوانها، سألتها يوماً عن سرّ هذه الخطوط، أجابتها بأنها تظهر حال ما تبسم، كم تخشى على هذه الطفلة من الكبر، أن تدرك وحشية هذا العالم وهي بهذا النقاء، والانتباه على أدقّ التفاصيل المرهقة، فلكي تعيش في هذا الكون المضطرب تحتاج للتجاهل وهبة النسيان.

كان صخر سعيداً جداً يتقافز أمامها مثل كغفر صغير أطلق توأ من جيب أمه:

- ماما إلى أين سنذهب؟ متجر الألعاب؟ أم سنأكل البوظا؟ يا إلهي لا أصدق أنا وأنت لوحدنا بدون ود أخيراً.

- لا تقل هذا يا صخر، ودّ أختك الصغيرة عليك أن تحبها وتحميها.

- يكفي أنك تحبينها وتحميها.

- وأحبك أيضاً يا صخر.

- تحبينها أكثر.

رفعت نظرها نحو المرأة لتتنظر نحو ابنها شعرت بحزن عميق نحو ما يقوله، هي تعلم أن الكثير من الأطفال يرددون هذه الكلمات على مسامع ذويهم. لكن المشكلة الكبرى كونها تدرك تقصيرها نحو صخر في الآونة الأخيرة، لم تستطع الموازنة بين أمومتها وغضبها من حسام، صخر النسخة المصغرة من والده، لكن هذا بالطبع ليس بالعدر، هي لم تنجب حسام، لكن صخر هو أول شهقة هواء حقيقة تنفستها أول إنجاز في حياتها وأحب خلق الله لقلبها.

ركنت السيارة بالقرب من الحديقة العامة، ترجّلت من السيارة
تأكدت من لفّ الوشاح جيداً حول رقبة صخر.

- ماما إنه يخنقني.

- الهواء بارد ستمرض.

- لست صغيراً يا ماما، أبي لا يضع وشاحاً عند خروجه ولا يمرض.

أمسكت يده ومشت باتجاه الحديقة.

- حسناً، لكنني أضعه...

- أنت فتاة والفتيات ضعيفات، وأنا رجل قوي.

- من قال إن الفتيات ضعيفات؟

- أبي.

- دعني أخبرك شيئاً، نحن الكبار نخطئ أيضاً، لا يوجد شخص لا
يخطئ أبداً، الله وحده هو المجرد من الخطيئة.

- وأبي؟

- حتى والدك يخطئ يا حبيبي.

- أبداً...

- حسناً سأبسط الأمر قليلاً، أتذكر حين طلبت من والدك اللعبة

التي رأيتها في إعلان التلفاز؟

- نعم.

- هل تذكر حينما جاء بواحدة أخرى مختلفة تماماً؟

أطرق برأسه حزناً، فرفعت رأسه بخنان.

- لا بأس يا صغيري، لا داعي للحزن أبداً، الأخطاء تمنحنا الدروس التي نحتاجها، دون الأخطاء لن نعرف ما هو الصحيح أبداً، هل كنت ستعرف جمال الضوء لو لم تر الظلام؟ لكن المشكلة الحقيقية أن نقترف الخطأ ونكرره ونعمل على تكبيره.

- وكيف يكبر؟

- حين نتجاهله، حين يخبرنا الآخرون أن ما فعلناه غير صحيح ولكننا نصر على تكراره، حسناً ما رأيك أن نلعب لعبة؟

ابتسم وأشرقت عيناه الصغيرتان:

- حسناً، سأبدأ أنا.

- دون أن تعرف ما هي اللعبة؟

لم يخطر له فكرة كهذه، كانت عيناه حائرتين.

- لا بأس سأخبرك القواعد وستبدأ أنت، سيخبر أحدنا الآخر ما هي آخر أخطائه وكيف اكتشف بأنه مخطئ.

- لا أحب هذه اللعبة، أريد واحدة أخرى.

- ولكني أحبها، هل ستركني حزينة؟

- حسناً ولكن عديني بأن نلعب أخرى أحبها.

- موافقة، بينما نفكر لنذهب نحو ذلك الكشك لشراء الشوكولاته الساخنة.

- أنا من سيدفع للبائع.

دست بعض النقود في جيبه وأومات له باسمه.

تركها راكضاً نحو البائع تباطأت في مسيرها لتبهه حرية الرجولة التي يأمل، تخاف كثيراً أن يكون هذا الطفل هو نسخة مكررة لما تربى عليه أبوه وأخوها، وأغلب من قابلتهم من الرجال، حتى قريباها المتحرر ذلك الذي ينادي بكل حريات العالم، لم يتحرر يوماً من شقيقته، في ما عدا حين تقف حاجزاً أمام شهوته وغرائزه.

كان متحرراً جداً حين يلصق جسدها على حائط المخزن الخارجي في منزل الجد، كان مؤمناً بحرية المرأة والحب كان مؤمناً بها أيضاً، حاول إثبات أن العذرية لا علاقة لها بالجسد، وأن الغشاء الذي تستमित للمحافظة عليه، وهي بين يديه ما هو إلا فكرة رجعية باهتة وقديمة زرعتها جذتها داخل عقولهم، قريباها الشيوعي ذاته هو من أقفل باب غرفة أخته لشهر كامل، حين زل لسان جاره بحبها وهم يحتسون مشروبهم الروحي.

رفعتة قليلاً عن الأرض ليستطيع إيصال النقود ليد البائع، حينما أنزلته شعرت بنشوته، ابتسمت، وهي تربت على رأسه.

- هل نبدأ؟

نظر نحوها برجاء، كأنه يتوسلها لتلا تجبره على البوح بنقيصة.

- ألا يمكن لنا أن نبدأ بلعبتي أولاً؟

- من الرجولة أن يفني الرجال بوعودهم.

تبرم قائلاً:

- حسناً، أنا لم أخطئ، لكن معلمتي قالت لي إني أخطأت.

- أحدث هذا في درس الحساب؟

تعمدت أن تظهر عدم معرفتها المسبقة لما حدث.

جلس على مقعد قريب، فتدلت ساقاه في الهواء، وهو يحاول جاهداً أن يصلها بالأرض.

- لن تصل قدمك هكذا، دعني أساعدك.

- أنا كبير، لا أحتاج للمساعدة يا ماما.

- حسناً إذن ما دمت كبيراً أخبرني ما مشكلة المعلمة الجديدة دون أن تتهرب، فالكبار لا يتهربون.

كذبة أخرى لهذا اليوم، هذا ما فكرت به.

- أخبرت صديقي أنه سيذهب إلى النار، ومعلمتي تقول بأني مخطئ

رغم أني لست كذلك.

- مم، حسناً وهل ستذهب أنت إلى الجنة؟

- طبعاً...

- كيف؟

- لأنني لست سنياً...

- إذن؟

فكر لعدة دقائق ثم قال بخجل

- i dont know نسيت الكلمة.

- حسناً بكل الحالات التسمية غير مهمة أبداً، انظر نحو ذلك الرجل.

أشارت نحو رجل مسن انحنى ليقدم الطعام لكلب.

- هل تظن أن هذا الرجل سيذهب للجنة أم للنار؟

- للجنة بالطبع فهو رجل لطيف، ويحب الخير.

- وماذا لو كان سنياً؟

- كلا يا أمي فهم قساة وقتلة.

آلها ما قاله، أن يحمل ابنها كل هذه الضغينة، أن يعرف معنى الكره والقتل والموت، وهو لم يعرف معنى الحب والعشق بعد.

- هل تذكر قصة الأعواد يا صخر، تلك التي تتفرق فتكسر، جيمعنا نعبد الله يا ولدي، والله يحبنا جميعاً ويرحمنا جميعاً يكفي أن تؤمن به ليسامحك ويدخلك جنته لكن الاشرار يا بنسي أرادوا العذاب لنا في الدنيا، فأطلقوا علينا التسميات لتتفرق، فنضعف ونموت.

- ولكن أبي قال هذا حين رأى ذلك الجيش الأسود في التلفاز.

- لا بد أنك فهمته بصورة خاطئة، فهو لاء ليسوا بمسلمين حتى هم يدعون هذا فقط لجعل المسلمين متفرقين فيسهل غلبهم، الأغبياء فقط هم من يصدقون هذا، وأنت ذكي ومجتهد، لا تفكر بهذا كثيراً فالموضوع معقد لن تفهمه الآن، كل ما أريده منك أن تحب الجميع لترتاح انت، الكراهية تجلعلنا وحوشاً هل تريد أن تكون وحوشاً؟

- لا أنا سأقتل الوحوش كلها فأنا البطل.

- حسناً يا بطلي، لنذهب لنبتاع هدية صلح لصديقك.

كانت تقف قبالة المدرسة بانتظار ودّ، حين خرجت وهي تمسك بيد غريبة وتحمل بيدها الثانية هدية كبيرة ويعلو رأسها تاج مزركش، ما إن لمحت السيارة حتى أفلتت يد معلم الفنون وركضت تجاهها بسعادة.

- ماما.. ماما look i won

احتضنتها ودّ بقوة، وأمطرت وجهها بالقبلات.

- ألم أقل لك يا صغيرتي، هيا سنذهب للاحتفال سنشتري فطائر التفاح وسأعدّ لكم غداء كم المفضل.

- لا حاجة أن ترهقي نفسك، فأنتم مدعوون لوجبة الغداء احتفالاً
بفوز ودّ، جاء صوته واثقاً، دون أن يفرط بنبرته الهازئة.

- شكراً جزيلاً، أنا لا أسمح لهم أن يأكلوا في المطاعم.

أعاد نبرته:

- لا تخافي مطعم حلال.

- لا علاقة للدين بهذا الأمر، لا أضمن صحية طعامهم، قد يكون
ملوثاً، قد يدمن الأطفال على هذا النوع من الطعام وقد....

- وقد يكون هناك عبوة لاصقة تحت الطاولة، وقد يكون الطعام
مسموماً والمطعم غطاء لعصابة أرهابية، مدام رHF (هونها بتهون).

حمل ودّ بين يديه:

- تستحق ودّ يوماً متميزاً تماماً كموهبتها.

- please mom -

صرخ الطفلان بذات الوقت، وأضاف مهلب:

- نحتاج للحديث، هناك مطعم مناسب للأطفال، سأدلك عليه،
هل تودين أن أتولى القيادة عنك؟

أزعجتها طريقته، فرض تواجد عليها ليس على وجبة الغداء فقط،
بل حتى داخل سيارتها، فكرت بأن الأمر سيبدو عادياً وأقل إخراجاً
بتواجد ولديها.

- سأقود أنا..

رفضت بهزة رأس.

ابتسم بلا مبالاة، وهو يفتح باب السيارة.

بدا الطريق طويلاً جداً بالنسبة لها، تواجهه يجعل من اللحظة ساعة كاملة، بدأ يتحرك باحثاً عن شيء ما، التفتت نحوه منزعة.

- أتعجب منك، أنت عراقية الأصل ولا وجود لأي أسطوانة عراقية في سيارتك، ذاك الطرب الأصيل أيعقل ألا يهزك سماعه؟

- تحب الطعام العراقي، وتستمع للأغاني العراقية، لم لا تطلب لجوءاً هناك؟

- لا تعينني الأوطان يا سيدتي، بقدر القلوب التي نبضت بها، بلد تفتقت أرضه لتنجب جواد سليم ومحمد غني، ونوري الراوي، سمعت بلابله صوت ناظم وياس وحמיד، تقديسه واجب عليّ، حين تكونين عراقية ولا تقرنين للسياب والصابي صباحاً فأنت لا تختلفين عن الطغاة بشيء، فقلوبكم تحمل ذات القسوة، كيف تغفين ليلاً دون تذكر مظفر وهو يشدو:

(شكّد رازقي ونيمته)

ضغطت على الفرامل بقوة، التفتت نحوه والشرر يتطاير من عينيها متجاهلة صراخ أطفالها المرتعنين.

الفصل السابع

صرخت بقوة:

- ماذا تعني؟

- مدام رهف ما المشكلة، هل أنت بخير؟

بدالها من الصعب جداً أن تتحكم بأعصابها هذه اللحظة بدأ جسدها بالارتعاش، حاولت أن تهدأ قليلاً أوقفت السيارة على جانب الطريق.

وعاودت سؤاله:

- أجبني يا سيد مهلب، مالذي عينته بقولك هذا؟

- أنا لا أشكك بانتمائك فقط كنت أعني..

ضربت على مقود السيارة بغضب:

- لا تتجاهل سؤالي أنت تدرك قصدي.

بدأت ودّ بالبكاء، أربعها منظر والدتها، شعرت هي بدوار، تدارك الموقف مباشرة، ترجل من السيارة وحمل ودّ بين ذراعيه، وأشار لصخر باللاحق به.

- من منكم يريد تناول الحلوى؟

أجابته صخر الذي حاول بصعوبة أن يبدو قويا و شحب وجهه بشدة:

- ماما لا تسمح لنا بتناول الحلوى قبل الغداء أبداً.

- لنجعل من اليوم استثناء.

صرخت رهف مجدداً.

- من أعطاك الحق، اترك أطفالى أعدهم إلى السيارة حالاً.

وضع ودّ على الارض وتوجه نحوها.

- رهف اهدئي قليلاً لا أستطيع فهم سبب ثورتك هذه، حافظي على أعصابك من أجل طفليك على الأقل.

- لا يعينك هذا، من أعطاك الحق بأن تتسلل لحياتي وتعطي النصائح، بأي حق تلتصص عليّ وتصل بك الجرأة أن تطأ عتبة منزلي.

- أنا؟؟؟؟

- لسن يفيدك النكران بشيء، كشفت أوراقك يا هذا، لكن تذكر يا سيدي الرومانسي بأني امرأة متزوجة وأم أيضاً.

- لا أعرف أي أوراق تلك التي كشفت، ولكن بكل الأحوال لا أجد الآن الوقت المناسب للنقاش، أعطني المفتاح سأتولى أنا القيادة.

• تركت يده معلقة بالهواء، أشارت لطفليها بصعود السيارة، وانطلقت عائدة نحو المنزل تاركة إياه بحالة ذهول خلفها.

أعدت الغداء بسرعة تاركة طفليها يأكلان وحدهما على غير العادة، دخلت الغرفة فتشت في جيوب رداؤها بحثاً عن اللعبة، لكن بدون جدوى، شعرت بأنها تنهار.

– أين اللعبة، أين أين؟

تعالى صراخها فهرع الطفلان نحوها، كانت ودّ تقف بعيداً تتكئ بجسدها على الجدار وهي ترتجف.

– ماما.. ماما..

– صخر هل عبثت بأغراضي مجدداً؟

نزلت دمعة من عينه.

– أقسم لك بأني لم أفعل، سأبحث معك ياماما فقط لا تصرخي.

لم تتحمل رؤية هذا الرعب والحزن بأعين طفليها تشعر بالخزي مما يحدث، فقدت السيطرة كلياً.

– اذهبا لمشاهدة التلفاز، سأحضر لكم حلوى.

ابتعدت ودّ باكية..

– لا أريد الحلوى، أريد بابا أنت مخيفة اليوم.

لم تستطع التمالك أكثر أغلقت باب غرفتها بعد ان أخرجت الاطفال تكورت على الأرض كجنين داخله بموجة نحيب، شعرت بصقيع اجتاح أوردتها فجمد أو صالها، بدا لها أن السجاد الذي ترقد عليه قد تحول لأرض ملساء مصقولة.

شمّت رائحة أعقاب سجائر رطبة، تناهى إلى مسامعها صوت بثّ مشوش، أغنية تمجد القائد، صوت طنين، يزداد شعورها بالبرد، فيزداد نحيبها طردياً مع ارتعاشها، عادت لتلك الشقة المظلة على الشارع العام، أجبرها زاهد على القدوم معه قانعاً إياها بحتمية مراقبة أستاذها العاشق لها، كان عليهما أن يتحدثا بأمر كثيرة خصوصاً بعد القطيعة الطويلة بينهما، خوفه من الجلوس بمكان عام، مع فتاة وهو ابن رجل دين، لم يمنحها منفذاً غير شقة صديقه التي اقترحها هو، ما إن خطت قدماها داخل الشقة حتى أيقنت ملكيته لها، قميص ارتداه يوم أمس، قنينة مشروب روحي، فارغة، كأسان متسخان أحدهما مزين بلون شفاه عند حوافه، حملت الكأس بين يديها، شعرت أن الدم قد هجر عروقها، بدأت بالصراخ: - تتحدثون عن الدين، تدرس فلسفته صباحاً، تجادل به، يخرج والدك ليأمرنا بالمعروف، وينهانا على المنكر، طبعاً فهو يود أن يدخره لولده الوحيد، عاهرات، تعاشرن العاهرات، وكر رذيلة، تدخلني وكر رذيلة يا زاهد، كيف لك أن تتحول بهذه السهولة، تلبس ثياب التقوى وما أنت سوى قوا... .

لم يمهلهما لإتمام حرفها الأخير، كان صوت ارتظام كفه على وجهها كان آخر صوت سمعته بعدها غزا الطنين أذنيها، وسقطت أرضاً.

لا تعرف كم من الوقت مرّ، وهي نائمة على هذا النحو، حين فتحت

جفنيها أطلت على ظلام يحيط بها من كل جانب، حاولت النهوض بصعوبة، رأسها يؤلمها بشدة، الأولاد كانوا أول ما خطر لها، تلمست طريقها نحو باب الغرفة، بدا لها سكون المنزل مريباً.

- صخر، ودّ.....

توجهت نحو الصالة بسرعة، كان التلفاز يبث برنامج رسوم متحركة، لكن لا أثر للأطفال، استمرت بمناداتهم دون أن تسمع إجابة، قبل أن تترك الصالة، استوقفتها العلبة موضوعة على الطاولة الرئيسية، لم تتركها هناك، بالأصل هي لم تمر هنا منذ أن صحت صباحاً، فتحت العلبة كانت الزهرة هناك، لكنها لم تجد القصاصة.

شعرت بالتوتر أفرغت العلبة على الأرض سقطت الزهرة ووسادتها، لا شيء آخر... إلا أنها تنبعت لقطعة سوداء صغيرة، تبين لها أنها شريحة ذاكرة، لم يسبق أن انتبعت لوجودها، أعادت كل شيء لمكانه وتوجهت نحو غرفة الأولاد، لا أحد هناك، تخدرت أوصالها بدأت تصرخ بأسمائهم وهي تبكي.

فكرت باحتمالية ذهابهم عند الجارة العجوز، لكنها قد حذرتهم سالفاً أن لا يخرجوا دون إذن مسبق منها، خرجت من شقتها حافية الأقدام، قرعت الجرس والباب بقوة

لا أحد يرد، علا صوت نحيبها، بدا أمد بعيد حتى فتحت العجوز البدينة الباب.

- أولادي، أين هم أولادي؟

بدت المرأة مرعوبة، سحبتها للداخل، جالت بأعينها المكان وهي تصرخ بأسمائهم، دون أي ردّ، لطمت على خديها بقوة.

- ضاعوا أولادي، أي أم أنا، يا الله لا تحرق قلبي يا الله.

- اجلسي.

قالتها الجارة الأجنبية بكل هدوء.

- أولادي ضاعوا

- هل اتصلت بوالدهم؟

كيف لم يخطر هذا لها، توجهت نحو شقتها راكضة، حمدت الله أن الباب لم يغلق وقد نسيت أخذ المفتاح معها.

لم تعثر على هاتفها المحمول، لا في حقيبتها ولا بأي مكان داخل المنزل، تذكرت بأنها تركته داخل السيارة، نذبت حظها الذي يعاكسها منذ الصباح أخذت علاقة مفاتيحها وتوجهت نحو السيارة، لم تتوقف عن البكاء ومناداة أطفالها، حين وطأت أقدامها الجرداء خارج المبنى شعرت بمدى قساوة الجو في الخارج، لم يكن البرد وحده عدوها، كل شيء يعاندها بقسوة كأن الكون اتفق على مناكفتها اليوم.

ما أن توقف صوت رنين الاتصال، حتى صرخت بسرعة.

- حسام، أين أنت الأولاد يا حسام الأولاد؟

- الآن تذكرت أولادك يا مدام، هم معي الآن.

- كيف تأخذهم دون إعلامي؟

- لم تكوني بحالة توحى بالاهتمام بأحد، اعرفني كيف تسيطرين على أعصابك أولاً كي لا ترعبي المساكين، ما ذنبهم لترينهم وجهك المرعب؟

- أنت وغد، ولم ترّ جانبي المخيف بعد.

أغلقت الهاتف بوجهه، بقيت متسمرة في مكانها وهي تفكر بما حدث واحتمال إصابة أطفالها بمكروه، ماذا يحدث منذ متى وهي أم مهملة. فكرت بأخذ جولة بالسيارة لتهدأ قليلاً، بدت لها الفكرة مجنونة تماماً، هيئتها وحالتها العصبية لا تؤهلها لهذا الأمر، عادت أدراجها نحو المنزل وهي تستعيد أحداث اليوم من ذاكرتها، تذكرت كلمات ودّ الأخيرة بدت كسكين يخترق قلبها، ثم ماذا عما قاله حسام، لا بد أن الاطفال قد أخبروه كل شيء، حتى تواجد مهلب، لم تكن تريد أن يعرف بهذه الطريقة، عموماً لا يحق له الغضب منها، هو بالذات دون كل الأزواج لا حق له بالعتاب، كما أنها لم تكن وحيدة معه، لكن ماذا لو عرف بالمرّة السابقة؟...

رَنّ هاتفها معلنا وصول رسالة:

كيف أنتِ الآن؟

لم يسجل رقم المرسل ضمن قائمة الأسماء لديها، قطعاً لن يكون حسام هو المرسل، لكن من غيره على معرفة بما حصل معها، لا يعقل أن يكون مهلب، فلم يسبق لها أن أعطته رقم هاتفها، ضغطت على الرقم

للاتصال به، وهي تحاول إيجاد مفاتيح الشقة بين كومة المفاتيح المعلقة في سلسلتها. جاءها صوت حسام:

- أين كنتِ يا مدام؟

لم يأتها الصوت من سماعة الهاتف، بل كان خلفها مباشرة، حين التفتت كان يقف هناك حاملاً ودّ نائمة على كتفه، أغلقت الهاتف رغم سماعها الصوت يصدر منه، توجهت مباشرة لحمل صخر الذي بدا شاحب اللون.

- كنت في موعد، ألا ترى تأنقي المفرط.

قبلت رأس صخر ويديه.

- آسفة يا حبيبي أربعتكم اليوم.

- يبدو أن عليك العودة إلى طبيب المجانين ذاك.

رمقته بنظرة ملؤها الكره.

- لندخل الأطفال الفراش ثم نتحدث لاحقاً، لدينا الكثير للحديث عنه.

- بالضبط هناك الكثير يا رهف.

كل ما خطر لها في تلك اللحظة، العلبة فقد تركتها هناك، ومعها شريحة الذاكرة، عليها أخذها قبل أن ينتبه لوجودها، فحتى لو تنبه للزهرة من قبل لكنه لم يكن على علم بالشريحة حسبما تظن. أنزلت صخر من أحضانها.

- هيا يا صخر، اغسل وجهك ويديك وأسنانك لتستعد للنوم.

- لكن ودّ نامت دون أن تغتسل، لا أريد أن أغتسل أنا أيضاً.

- ألم تعدني اليوم بترك العناد يا بطلي؟

توجه نحو الحمام متذمراً، بينما استغلت هي غياب حسام في غرفة الأطفال، أخفت الشريحة في حماتها الداخلية، ذاك الجب السري الذي ورثت فكرة استخدامه من والدتها كان بمثابة بنك العائلة، الخزينة السرية لراتب الأب الذي يسلمه لوالدتها مباشرة، أيضاً كان يحوي في فترة مراهقة أخيها مفتاح تلك الغرفة الصغيرة أعلى سطح المنزل، بعد أن اكتشفت في إحدى الليالي تسلل ابنها وابنة الجيران إليها، ليطفنسا ثورتها الهرمونية، لطمت الأم في ذلك اليوم وبكت، خوفاً من تبعات الموضوع وحاولت استجواب الابن عن مدى عمق ما حدث، حل الأب المشكلة يومها:

ابنك صار رجلاً، لماذا تولولين، العيب ليس منّا، وهي ليست بنتنا، والجيران لم يربوا بنتهم ولا علاقة لنا بها.

منذ ذلك اليوم والسطح من المناطق المحرمة الوصول إلا بعلم الأم، خوفاً من انتقام الزمان من بناتها قالت لابنها يوماً بعد سلسلة علاقاته اللعوب:

ألا تخاف على أخواتك؟ أن ترد عليهن لعنة افعالك

حسناً إذن لا ذنب لها بكل ما حدث مع قريبها، كان ذلك انتقام قدر لا غير.

شعرت ببرد شديد، زادت من حرارة التدفئة، وتوجّهت نحو المطبخ أخفت العلبة في دولاب الأطعمة الجافة لن تصل يد حسام لهنالك أبداً.

صحت على صوت منبه الساعة، فتحت عينيها بثقل، فكرت بالعودة إلى النوم لكن لا، عليها تسليم بحثها للأستاذ اليوم، ستحاول أن تتجنب رؤية زاهد لن تسامحه ما حيت على فعلته تلك.

- رفف.. رفف اصحي.

صرخت بصوت عال حين رأت وجه حسام أمامها.

- هل جننت لم كل هذا الصراخ؟

أدركت أنها كانت تحلم، لم تستطع ليلسة أمس أن تغفو بسهولة التهمت حبتين من المنوم، فلم تستطع الاستيقاظ أيضاً.

- ودّ.. صخر... المدرسة.

التفت حسام نحوها وهو يهز بكفيه.

- لا أعرف ما الذنب الذي اقترفته ليعاقبني الله بزوجة مجنونة، اليوم عطلة، لكن يبدو أن هناك ما يشغل تفكيرك، أو ما يجعلك متشوقة للذهاب إلى مدرسة الأولاد.

لم تكن تملك القوة الكافية للرد عليه، خصوصاً بعد معركتهما الطاحنة ليلة أمس، سحبت الغطاء على رأسها وان্দست بفراشها.

- ألن تحضري الفطور؟

اكتفت بعدم الرد عليه مديرة جسدها نحو الاتجاه الآخر، وفي بكل الأحوال فإن هذا من مصلحته هو، فهي لا تضمن صفاء ضميرها، قد

تضيف السم إلى طعامه تماماً كما يضيف هو لكلامه معها، كلماته ليلة أمس لا تزال عالقة في ذهنها، وهو يذكرها بتفضله عليها لانتشالها من فقر عائلتها، وإبقائها كزوجة له بعد كل ما سمعه عن علاقتها المشبوهة - كما يصفها - بزاهد:

- يبدو أنك قد علمت بقدم ذلك الدجال هنا فتبعثرت أوراقك.

حين قال هذه الجملة كان يبدو متأكداً من وجود زاهد هنا، وإن صح هذا يعني ورود احتمال أن تكون قد ظلمت مهلب وأن زاهد هو من يتلصص على حياتها الآن، لكن حسام كان يتخبط كالثور الجريح، فساعة يلوح بقدم زاهد وفي نفس الوقت كان يلمح حول علاقة تربطها بمهلب، أنهت الحديث الذي طال:

- أنت تسرى انعكاسك عليّ يا حسام، أنا لا أملك انعدام ضميرك، كما أنني لا أشبه قريبتى، ولا حتى عشيقتك تلك التي تنادي بالإنسانية، فتغيث الأطفال من موت المجاعات، وتحاول قتل آخرين بسلب آبائهم من أمهاتهم.

لم تفهم سبب ارتبائه حين ذكرته بنادية، حبيبته التي تعرف عليها في إحدى مؤسسات الاغاثة، تلك الفضيحة التي تم التستر عليها بدفع بعض الآلاف من الدولارات، لم تتضرر نادية، بالعكس ربحت صك وصول ساعدها في ملف الهجرة الذي قامت بإبرازه، ادعت تقييد حريتها في بلدها، قالت بأنها مهددة بالقتل بسبب عشقها لرجل لطالما تمنته، لم تذكر أن الرجل متزوج، لم تقل أنه تعرف عليها وهو ينقل تبرعات زوجته لتلك المؤسسة في إحدى رحلاته للوطن، عرفت كل هذا بالمصادفة في إحدى جلسات النسيمة النسائية التي يتم خلالها سرد

القصص المختلفة عن النساء اللاتي يدخلن المجتمع المهاجر حديثاً:

- ذكية هي، نجحت في الوصول إلى هنا، وأجبرته أن يدبر لها السكن والعمل، هي جميلة والجمال يصنع المعجزات ويهب الحظ.

حين واجهته بما سمعت عنه لم يهتز له جفن، كل ما قاله:

أنا رجل والشرع يسمح لي بأربع نساء.

منذ ذلك اليوم وحتى بعد عودته ذليلاً بعد ترك نادية له، لم يعد حسام بالنسبة لها زوجاً، هو فقط والد طفليها اللذين تحرص أن لا يعرفا حقيقة خواء ما بين ذويهم خوفاً على مشاعرهم.

سمعت صوت إغلاق الباب، كان أول ما خطر لها في تلك اللحظة الشريحة، تركت فراشها بتكاسل، أطلت على غرفة الأطفال لا يزالون نياماً، حمدت الله سيكون لها الوقت الكافي لمشاهدة محتواها، كان حجمها لا يناسب هاتفها، فكرت بجهاز الاطفال اللوحي، لم يكن مناسباً أيضاً، تذكرت حاسوبها المحمول القديم، حاولت تذكر مكانه لكن عبثاً فعقلها مشوش جداً، توجهت نحو المخزن، كان هناك الكثير من الأغراض أين يمكن لها أن تجده، لمحت حقيبة سوداء تشبه حقيبته جهازها منندسة بعمق بين الكراكيب، فكرت بكيفية وصولها إلى هناك. يبدو أن الحقيبة قد وضعت في تلك الزاوية منذ انتقالهم إلى هذه الشقة قبل عام، حملت ذكراتها المرهقة سبب عدم تذكرها متى كانت آخر مرة استخدمت فيها الجهاز، وصلت بصعوبة إليها، حين حاولت فتح الحقيبة وجدت أن لا رأس لسحاب الحقيبة، تمت إزالته وصمّغت أطرافه، من المؤكد أنها ليست حقيبتها، ولكن لم تم

إقفال الحقيبة ووضعها بهذه الطريقة، حاولت فتحها ولكنها لم تفلح
بينما كانت تبحث عن أداة تساعد في فتحها، تنهى لها صوت ودّ
باكية، وهي تصرخ باسمها أعادت الحقيبة مكانها بسرعة وتوجهت
نحو ابنتها.

- لا تبكي يا صغيرتي.

- ظننتك قد تركتنا ورحلت يا ماما.

- لم تقولين شيئاً كهذا؟

- أنت غاضبة طوال الوقت منذ أيام وتصرخين كثيراً حتى على
أبي، أخبرني صديقتي بأنها صحت يوماً ولم تجد والدتها بعد عراك مع
أبيها، ولم تعد منذ ذلك اليوم.

- لماذا؟

- لا أعلم لكنها كانت غاضبة دوماً مثلك.

حملت لدقائق بوجه ابنتها، يا الله ليتها تعلم كم قاست وتحملت
فقط كي لا يمروا بيوم حزين، ألا يروا انهيارها هذا ولا أن ينكشف وجه
أبيهم أمامهم.

- لست غاضبة منكم يا حبيبتي، أنا مريضة قليلاً فقط ورأسي يؤلمني
طوال اليوم، لكنني آسفة وسأعوضكم اليوم عن كل ما حدث.

غمرت والدتها بحنان، لامست شعرات ودّ الناعمة خدها،
تذكرت أمنيتهما أن يكون شعر ابنتها موجاً كشعر زاهد، أخبرته يوماً

عن أميتها تلك، وكالعادة غير اتجاه الحديث فوراً، لم يكن يتحدث عن أي مستقبل لعلاقتها أبداً، فهو مدرك تماماً أن والده الذي أعلن تغيير مذهبه، وقدم نفسه كرجل دين ليسلم من برائن الحكومة التي أعدمت أقرابه المعارضين، لن يسمح أبداً لولده بالزواج من امرأة تعيدهم إلى دائرة الشك بمذهبه المنبوذ ذلك.

- ماما أنا جائعة.

- اذهبي لإيقاظ صخر، سنتناول الفطور في مطعم جميل اليوم.

تذكرت أنها تركت حاسوبها في أعلى رف من دولابها، توجهت نحو الغرفة كانت تشعر بصداع رهيب، فتحت حقيبتها بحثاً عن حبوبها المهدئة فوجدت القصاصة بين أغراضها، خطر لها أن تكون هناك شريحة أخرى لم تتبه لوجودها في العلبة الأولى، فتحركت نحو مخبئها السري، بحثت عنها مطولاً أفرغت ملابسها أرضاً ولم تجد شيئاً أبداً.

لا يعقل أين ذهبت؟ يستحيل أن يعلم حسام بأمرها، الدرج الذي أخفته داخله كان مقفلاً، لا أحد يعلم مكان المفتاح غيرها.

ضغطت رأسها بين يديها، وضعتها بنفسها هناك تكرر موقف الأمس مجدداً أستعازت بالرب ودعته بصدق:

-إلهي لا تحطني بالأوهام مجدداً.

الفصل الثامن

وفت بوعدها لطفليها، كانا فرحين جداً إنها المرة الأولى التي تسمح لهما بها بتذوق طعام المطاعم، تأكدت من نظافة كل شيء وصحية الطعام، رغم ذلك لم تتوقف عن الدعاء أن لا يصيبهما مكروه نتيجة ما يأكلون، أرادت تعويضهما فقط، تركت لهما الخيارات مفتوحة لتمضية هذا اليوم فاخترنا الذهاب للمجمع التجاري، صخر يريد لعبة جديدة، وودّ تحتاج لأدوات رسم فما كان لها أن ترفض مطلقاً، كانت المكتبة هي الأقرب من المطعم فتوجهوا لشراء حاجيات وديّ أولاً.

ما إن دخلت هناك حتى وقعت عينها عليه مباشرة، كان ملفتاً للنظر كالعادة، غارساً مجموعة الفراشي التي اختار شراءها بين خصلات شعره، حاولت تجنب لفت انتباهه لكن وديّ قد سبقتها بخطوة، وهي تنادي على أستاذها بفرح، التقطها من الأرض مباشرة واضعاً إياها فوق كتفه، بدت سعيدة جداً وهي تنتشل الفراشي من بين خصلاته.

- أتمنى أن يكون مزاجك اليوم أفضل.

اكتفت بإبتسامة.

- جيد جدا.. كان في نيتي يوم أمس الذهاب إلى معهد الرسم لتسجيل ودّ، لم لا نذهب الان سوياً، أنا متوجه إلى هناك أساساً.

- لكن....

صرخ صخر معترضاً.

- وعدتني بشراء لعبة وأن نشاهد الفيلم في السينما.

ملاعباً خصلاته بمرح قرر عن الجميع.

- سنذهب الان لشراء اللعبة ونذهب للمعهد، ثم سنذهب لمشاهدة الفيلم معاً.

بكل بساطة ينتشل الحدود الفاصلة ويكون جزءاً مما يريد، لم يسبق لها أن عرفت شخصاً بهذه الجرأة، إن لم تكن الوقاحة التعبير الأفضل.

- أستاذ مهلب..

أنزل ودّ من فوق كتفيه ووجه كلامه إليها:

- في تلك الزاوية ألوان ستعجبك، اذهبي لاختيار ما تريدين تلك هديتك مني لفوزك أمس، وأنت يا صخر لا تترك أختك وحدها هيا.

انتظرت ابتعاد ولديها، وهي تهى نفسها لتويخه.

- بأي حق تمنح لنفسك صلاحية القرار؟

- أجدك مشوشة، أنت بحاجة لي، أقصد للمساعدة بالطبع،

حاولت الاطمئنان عليك ليلة أمس، زاد قلقي بعد اتصالك بي بدون أن تتكلمي.

- من أين لك رقم هاتفي؟

- سخرت الجان.

- أستاذ مهلب..

- مهلب.. بدون اضافات تسلب حميمية الحديث، لدينا عمر كامل للنقاش ولكن هذا ليس الوقت ولا المكان المناسب له.

تركها واقفة وحدها بينما عاد لجمع ما يحتاجه من ألوان وبعض المعدات الأخرى، توجهت نحو مقعد بالقرب من مكتبة عامرة بكتب الرسم، حلمت كثيراً بتعلم هذا الفن كانت تحتاج للبسوح، للصراخ بطريقة لا تلفت الآخرين، خصوصاً بعد ما أصابها بعد إعلان الحرب بيضعة أيام، حين أتى قريتهم لأخذهم لمنزل العائلة، في منطقة آمنة أكثر، خلال الطريق إلى هناك بدأ قريتها يتحدث بتشف:

- راح زمن العنتريات، بعد أيام قليلة سينتهي الكابوس الطويل، شعبنا جوعاً وذللاً، لن يجدوا أحداً يحميهم، ولن يجد القائد وعصابته طريقاً للهرب، ظن أن بأستطاعته منطاحة اميركا بسيفه الملوث بدماء الشعب، أو بخنجر علي الكيماوي...

كانت قلقة على زاهد، رغم انقطاع العلاقة بعد ما حدث في شقتهم، إلا إنها تمننت أن تعرف مكانه الآن، والده من المقربين للنظام، لو تحقق ما يقوله قريتها المنكوب بهروب أخيه الشيوعي وحببها السابق

من البلد، سيكون زاهد وعائلته في خطر حقيقي، وتحقق ما قاله القريب يومها، حين أعلن سقوط نظام الحكم دخلت رهف بحالة هسترية وهي تسمع ما يقال ممن هم حولها، الكل يبدي رغبته بالانتقام لكل من له صلة بنظام أذاقهم الذل والجوع وطعم الفقر، بدأت صحتها بالانهيار هجرت الطعام واحتلت نومها الكوابيس، وهي ترى زاهد كل يوم في غرفة تعذيب، أو يجرب بحبال كتمثال المخلوع وأمثاله، همست جدتها لوالدتها بأن ابنتها «مخروعة أو مسكونة بالجن» هذه الخرافة التي جعلت منها مصدر رعب عند أطفال العائلة، وحوّلتها إلى مادة خصبة لتجارب أقرانها من النساء اللاتي تفنن بقراءة التعاويذ وربط الحجابات لها، استمرت تلك المرحلة لشهور في حياتها، جابت خلالها مرآق الاثمة والصالحين، كانت ترضخ مقادة من والدتها؛ لأن تلك هي الطريقة الوحيدة التي تكفل لها خروجها من المنزل، كانت تبقي عينها على الطريق تتأمل الوجوه والسيارات، عليها تلمح أثرأله.

طال الجدل بينهما عند دفع الأغراض، أصرَّ على شراء هدية ودَّ وأخرى لصخر كي لا يشعر بالترفة كما يقول، أمرها بلحاقه بحذر، حمدت الله فعلى الأقل لن يقتحم السيارة أيضا هذه المرة

رحبت به موظفة الاستقبال بحرارة، كان يتصرف كأن المكان ملك صرف له، طلب مقابلة مسؤولة قسم الرسم في المعهد الذي كان يضم حلقات كتابة وموسيقى أيضاً، بدأ كل شيء حميماً ودوداً ثمنت لو تستطيع هي أيضا البقاء هنا، أن تكون جزءاً من هذه الحميمية الخلاقة، أخذتها المسؤولة في جولة تعريفية ومحاوّل ذكية منها بإقناعها بضم صخر أيضا لأحد الصفوف، كانت تستمع لوصفها باستمتاع، وهي تخيل مستقبل ابنتها كفنانة وامرأة ناجحة مميزة، تلك الأمنية التي لم

تستطع تحقيقها لذاتها، كانت ستخرج من غرفة الرسم حين استوقفتها لوحة معلقة بمزل عن الأخريات، شعرت بالأرض تدور تحت أقدامها، لوحة بخلفية سوداء قائمة أحالت كل ما حولها لذات السواد بثوان، شعاع ابيض اخترق هذا الظلام تحول ببطىء لزهرة بيضاء مشنوقة، شعرت بحرارة تحتاج جسدها، ثم عادت موجة الصقيع تلك لتعتريها، حاولت فك الشال الصوفي المحيط بعنقها، أغلقت عينيها واستمرت تلك المشنقة بالظهور أمامها، واسم مهلب المكتوب تحول إلى صدى مسموع، خرت على الأرض، وهي ترتجف وتعتصر ركبتيها وتبكي، أرعبت حالتها الموظفة فأسرعت لمناذاة مهلب الذي أمرها بالخروج وعدم السماح للأطفال بالقدوم أبدا، أخبرته أنها وصلت لهذه الحالة بعد تحديق طويل بلوحته ثم خرجت وهي تطلب منه إخبارها إن كان هناك أي داع للاتصال لطلب المساعدة أو الإسعاف.

كانت أشبه بمن يدخل في حالة تنويم استمرت بترديد اسم زاهد والمشنقة.

- أنت وحش، مشنقة، تستهزئ بالمي وترسل لي تلك الزهرة البيضاء، كيف عرفت، كلا، زاهد، زاهد يحبني هنا عاذا لأجلي، الحرب، لم يشنق كاذب.. لماذا... زاهد...

- رهف.. أنت تهدين توقي حالأ.

لم يفد صراخه، اضطر للتعامل بعنف أكبر استمر بهز كتفها بلا فائدة حتى طبع كفه على خدها، ظهر الطنين مجدداً، أغنية القائد تعاد، أرتال عسكرية، سماء حمراء، صوت زغاريد، مجموعة أزهار قطفت من حديقة تحملها ابنة الجيران، رسالة صغيرة:

- ظننتك كزهرتك المفضلة بلا أشواك، لكنك مليئة بها، مبارك
زفافك يا رهف.

تعالى نشيجها، ضمها مهلب إليه:

- آسف يا رهف لم أقصد إيلاملك لكنك أراعتني.

- أنت أنت من كنت ترسل تلك العلبة لي، تلك الأزهار منك.

- عن أي علبة تتكلمين؟ وأي زهرة؟

- تلك الزهرة المرسومة.

- تقصدين الياسمين الدمشقي؟.

- بل أقصد (الرازقي).

- انظري إلى اللوحة تأملها مجدداً، انه الياسمين يا رهف.

- لا أريد... لا أريد.

نهضت من مكانها تاركة مهلب ولوحته خلفها، كان الطفلان
بانظارها في استقبال المعهد، مدت يديها لهما، فتعانقت أيديهما
الصغيرة مع كفيها المتعرقتين، خرجت مستندة إليهما، كانا الشيء
الحقيقي الوحيد في حياتها هذه اللحظة.

الفصل التاسع

مرت خمسة أيام دون أن تستلم أي علبه جديدة، عاودت مراجعة طبييها النفسي مرة أخرى تخاف على ولديها كثيراً، وهذا ليس بالشيء الجديد، تكمن المشكلة بأنها تخاف عليهما منها للمرة الأولى، أعطت الشريحة للطبيب كدليل على وجود العلبه حاولت فتح الملفات المخزنة فيها إلا إنها أقفلت برمز سري، حاولت مراراً تخمين ما يملأ تلك النقاط السوداء المتعجرفة التي تنهرها في كل مرة تخطئ بها لكن دون جدوى، بحثت كثيراً عن العلبه الأخرى لكنها اختفت هي أيضاً.

اتعبها البحث عن دليل، تحتاج الدليل لذاتها، قبل أن يكون لطبييها، لم تجن، هي متأكدة من ذلك لقد شمت رائحتها التي كادت السنون أن تنسيها كيف تكون، تلك الزهرة التي عذبتها كثيراً حين قرأت رسالة زوجها لسيدة التبرعات تلك قائلاً: إن لها قلباً بياض الرازقي، وجسداً برائحته، لم تكن تعلم أي صدفة مشؤومة قادتها لهاتفه في ذلك اليوم، حين نسيه بعد أن قضيا ليلة زوجية بدت مميزة عن مثيلاتها فتأخر على عمله صباحاً، نسيه على طاولة الحديقة في منزلها القديم الذي خسره في إحدى مضارباته المالية، نصف شركة ومنزل قيد الرهن، أجبرها ألا يكون سجنها روحياً فقط، بل قيد وثاقها بهذه الشقة الكئيبة، هي الفتاة التي طالما رددت والدتها عليها:

- يمكن أن تكون عمّتك دفنت سرتك في الحديقة بدل المدرسة،
خبريني ما الذي يربطك بالحديقة، هل تعشقين فلاحاً يا بنت.

رغم كل التشويش الذي تمر به لكنها لا تستطيع نزع زاهد من تفكيرها، ذكرياتها باتت تحاصرهما في صحوتها ووقت نومها، تعود إلى مصاطب الجامعة، كان يفصل بين قسميهما عشر دقائق يلتقيان في منطقة وسطية بعيداً عن أعين زملائهما، فليس من المناسب لابن رجل الدين أن يحظى بحبيبة، خصوصاً وهو مؤهل لأن يكون خليفة أبيه، فعلاً كان يشبهه بكل شيء خصوصاً بخلع جلد وارتداء آخر، تكرهه بنفس حجم حبها له، فكّرت كثيراً لو أن أمها عرفت بأنها تفكر برجل وهي على ذمة آخر، كانت ستلول وتضربها حيناً وتعود لتلطم خدها، تماماً مثلما فعلت مع أي مصيبة كانت تحل في المنزل بسبب أولادها.

الولدان نائمان، لا شيء لتقوم بفعله، لم يعد حسام، وتكاد تجزم بعدم عودته هذه الليلة، لفت نظرها الجهاز اللوحي الخاص بصخر، فكرت للحظة لم غاب عنها أن تبحث عن زاهد خلال الفيس بوك، أغلقت حسابها منذ فترة، الأخبار الموترّة، الصفحات التي تبث الكراهية هذا ما تذرعت به لكل من سألها عن سبب غلق حسابها الناشط في ذلك العالم الأزرق، كان مهرّبها من غربتها لفترة طويلة، دخلت عالمه بقوة شاركت أراءها، تعرفت على عدد كبير من الأصدقاء، بكل فئات المجتمع، لكنها صُدمت بوهميته، بالأحرى هي أقنعت ذاتها بوهميته، كان آخر ما تصفحته صفحة مخصصة لجامعتها استوقفها يومها منشور لأحد الأصدقاء ينشر خلاله صورة لزاهد، مع راقصة في أحضانها، استخدمت الصورة كدليل على فساد الحكومة الحالية، وواصفة والده

يبوق لترديد ما يريده السياسيون ذوو الجيوب العامرة، أرجع لقبه القديم والاصول التي تبرأ منها لسنين طوال، غير لون عمامته حسب الموضة الرائجة الآن، أما ولده الذي دخل الحراك السياسي فهو اليوم أحد أكبر أبطال المواقف المخزية، كان هذا جزءاً مما قرأته، لم تكن تعرف لم اختارت قرار غلق نافذتها تلك، أهو خوفها من الحنين، غيرتها، أم للاحتفاظ بصورة بيضاء صغيرة له.

رغم مرور عام كامل على آخر مرة وقعت عينها على منشور في هذا العالم السحري إلا أنها لم تجد أي تغيير فعلي، كل ما هو سلبى معلى وكل ما هو جيد محارب، كأنها أغلقته بالأمس فقط، بدأت عدد النقرات على الشاشة بالتزايد مع تزايد فضولها، دخلت نوافذ الاصدقاء، تلصصت على حياتهم بصمت دون أن تعلن عن عودتها، هناك من أنجب، من تزوج، من هاجر، ولم تغبط سوى من تطلق، فتحت نافذة للحوار، كانت واحدة من صديقاتها القلائل اللاتي يعرفن بعلاقتها العاصفة في الجامعة.

من وين طلعت هالشمس؟

ضحكت كثيراً، كان مقطع الأغنية هذا كلمة السر التي كانت تقولها لها كلما ما لمحت زاهد قادمًا إليها، كرمزية على كونه أحد أعلام النظام، وحظوة رهب بعاشق كهذا له مستقبل واضح ومضمون.

- سألتقط صورة لهذا الحديث، وأعلن دعمك للنظام البائد.

- ألم تدعّميه بقلبك ووجدانك يوماً، أم أنك مزقت الماضي كجواز سفرك؟

- وهل أنا الوحيدة التي تبرات من الماضي يا صديقتي، ثم ألا تطمحين أنست أيضاً إلى تمزيق جوازك، حين حدثتلك آخر مرة كنت تعدين أموال آخر جمعية شاركت بها، تلك التي تجمعين أموالها لتهديها للمهرب الذي سينفذك من برائن الوطن، ثم ماذا أيضاً الماضي؟ كان يبدو مزدهراً جداً مع الراقصة في واحد من ملاهي الدول الأوربية، فلم يقع الذنب عليّ أنا فقط حين أنوي الهروب، هل يعد نجاحي تهمة؟

- يبدو أنك تغيرت كثيراً يا رهف، أراك تشمتين برجل رفضت الحديث عنه يوماً بسوء وهو حي، بينما تنهشين جثته ميتاً الآن!

- عن ماذا تتحدثين؟ أي جثة هذه!

- رهف!!!!

- ماذا تقصدين.. تحدثي؟

- لم اختفيت إذن، خمنت ان غيابك كان هروباً بعد ما أشيع خبر مقتل زاهد، أصبنا جميعاً بصدمة، حين رأيت تفعيل حسابك الآن ظننت أن تكذيب خبر وفاته ورويته في أحد شوارع أمريكا قد وصلك؟؟

- أنا لا أفهمك، هل قُتل أم هو في أمريكا الآن؟

- لا أحد يعلم، يُقال إن مقتله خدعة قام بها ليتمكن من الهروب، بعد صدور اسمه في قائمة الأسماء المطلوبة للمحاكمة، بعد إثبات فسادها، وسرقتها المليارات.

- سأذهب الآن وأحدثك لاحقاً..

عادت كل صور أعلامها، وهو يشنق ويعذب، وهو يجر في شوارع بغداد، بدت لها تلك الأحلام كحقيقة تحدث أمامها الآن، طبعت اسمه على محرك البحث، صورة الراقصة عادت من جديد، قضايا فساد، صور إعلامية له ولوالده، مهارات وحكايا أعلن النصف منها، هذا هو الحال دوماً في العراق، نصف الحقيقة فقط هو ما يُحكى، لذا تجد الظالم في أعين غيره أسطورة، والمظلوم عند آخرين جباراً، كل ما هنالك كل يروى الأحداث حسبما يرى لا حسبما وقع بالفعل، حتى ذاته الذي حكم العراق لعقود هو سفاح ومنزه في نفس الرقعة الجغرافية، ويحدث أن يكون في نفس العائلة أيضاً، يتغزل البعض بصلادته، ويصفه آخر بجرذ جبان، كل منهم يملك وجهة نظر، ولا ضير في ذلك، تكمن المشكلة بأولئك الذين يتلونون كالحرباء على حسب لون البيئة حولهم، فكم منهم كان بلون زيتي يطوف فوق الروح تاركاً الرعب والهول، ثم تغير إلى لون السواد مدعياً الحزن والمظلومية.

هناك أخبار تؤكد مقتل زاهد وأخرى حديثة مع صور تؤكد تواجده في أمريكا، إن صح ما يقولون فيكون هو فعلاً من وضع الزهور أمام منزلها، لكن ماذا لو كانت كذبة وإشاعة، ماذا لو صح مقتله؟ فكرت للحظة بأن هذا هو الأفضل لها ولستقبل عائلتها، ولكن هل تمنى موة حقاً، هي التي كانت ترسمه بخيالها كل ليلة فتنام في أحضانه، تداعب خصلاته ويخبرها آخر الأحداث التي مرت عليه اليوم، هي التي أمضت الستين الأخيرتين من زواجها تحدث خياله شاكية بكل ما يؤلمها، هي التي كانت تردد اسمه وقت صلاتها داعية الله أن يتوب عنه ويهديه الهداية الحق، ألم تلون تلك العلبة السوداء حياتها فقط لأنها أملت أن تكون منه، كيف تجد في فكرة موته اليوم إحساساً بالأمان؟..

قُطعت أفكارها برسالة على هاتفها، كانت لوحة غير مكتملة، لامرأة مشنوقة بجبل من زهور بيضاء، كانت تلك ملاحظتها هي كيف له أن يجروا. ضغطت على زر الاتصال مباشرة:

- آمل أن تكون أعجبتك.

- من تظن نفسك، بأي حق تهزأ من الآسي وتجسدها بطريقتك الخاصة، لأظن أن كل الفنانين وقحون مثلك.

- لا.. ليسوا جميعاً مثلي لذلك هم فاشلون.

- ومن أنت وما ميزتك بالحياة لتصفني الآخرين بالفشل.

- ستكون اللوحة جاهزة غداً، أنتظر في ذات المقهى.

- نتحدث وكأنك متأكد من قدمي.

- انا واثق تمام الثقة، عموماً تذكرني أنا هنا لأساعدك، تصبحين على زهرة بيضاء.

أغلق الهاتف دون أن يمنحها فرصة للرد، شعرت بوحشة وخوف عاودت النظر نحو الصورة من جديد، بدأت تشعر بالاختناق، اتصلت على هاتف حسام كان مغلقاً.

هو على موعد غرامي هذا ما أوحته هيئته قبل الخروج، قاومت رغبتها بالصراخ، جلست القرفصاء، ضمت نفسها بذراعيها وبدأت تهدئ روعها بأغنية قديمة، كثيراً ما استمعت لعمتها وهي ترددها حين يزهر الحنين بروحها: «أحنا مشينا مشينا مشينا للحرب عاشق يدافع من أجل محبوبته احن مشينا للحرب...».

ادعت كثيراً تعاطفها مع هذه المرأة التي كانت مثلاً للحزن، لكنها
الآن فقط عرفت أن هناك ما هو أقسى من الحزن كثيراً، إنه الضياع.

الفصل العاشر

كان وجهها شاحباً جداً، حاولت أن تخبي آثار الية الماضية ببعض الألوان، إلا أن الكحل أبى أن يستر ما أصاب جفنيها، تسترت بنظارة سوداء واستعدت للخروج.

أكد على مواعدهما برسالة صباحية مع وقت خروج الأطفال إلى المدرسة، شيء ما دفعها للقيام والتحضير للخروج، هي التي رددت طوال الليل على نفسها بأنها لن تذهب.

نظرة أخيرة على المرأة، كان كل شيء مائلاً للعتمة بسبب العدسات القائمة، هذه العدسة التي ستمنع أشعة الشمس من الدخول إلى عينيها، وستمنع نظراته الضيقة من اختراقها، تلكأت بالخروج، خطر لها لو أن حسام على معرفة بموعدها، نهزت ذاتها لم يعد من سهرة الماجنة حتى الآن، ثم أن مواعدها ليس موعداً عاطفياً لتعتبره من الأمور التي يجب القلق حيالها.

فتحت الباب بعد أن ألقّت نظرة أخيرة على المنزل، كانت على وشك أن تطأ قدمها خارج العتبة حين تعثرت بشيء ما.. ذات العلبة السوداء، كاد قلبها أن يتوقف، عاودت كلمات مُهلِس إلى ذاكرتها: تصبحين على زهرة بيضاء.

عادت نحو الداخل، وضعت الزهرة داخل حقيبتها وبحثت عن شريحة جديدة، لاشيء سوى قصاصة صغيرة، كتب عليها الرمز الثاني (A).

حاولت فهم مضمون ما يحدث، ولكن خطر لها أن تتصل بطبيها، ستأخذ العلبة له لتبرهن على صدق حديثها، وأن تلك الزهرة ليست من صنع خيالها:

- رهف!!!

دست العلبة في حقيبتها بسرعة.

- ما بك؟ لم ارتبكت ولماذا تتركين باب الشقة مفتوحا؟

كان حسام يقف أمامها بهيئة مبعثرة، تبدو آثار السهر واضحة على محياه، تجاهلته خارجة، لم تكن بحالة مناسبة للجدال، عموما لا يهتمها كثيرًا أين أمضى ليلته وما حدث معه، لاشيء أهم من زيارة طبيها و إبلاغه بما حدث.

كانت ترتجف وهي تعطيه الزهرة.

- قلت لك يا دكتور، أخبرتك لست بمجنونة، لكن العلبة اختفت، لا أعلم أين أو حتى كيف؟

طلب منها الهدوء وسألها عن تحليلها للقصاصة، توصل لفكرة أن تكون حلاً لكلمة السر، المشكلة تكمن أن هناك علبة لم تحصل عليها، ولا تملك أدنى فكرة عما يمكن أن يكون قد سرقها من عتبتها، فحتى

جارتها العجوز التي تشاركها الطابق مسافرة، ولا أحديهم من أطفال الجيران و.. كيف لها أن تنسى حسام.

- حسام، زوجي يا دكتور أنا متأكدة من كونه هو من يأخذ العلب، سأذهب الان سأكون هنا على موعد الجلسة القادمة، أعتذر لاقترام مواعيدك.

تركت العيادة بسرعة مشابهة لدوخلها قادت سيارتها متوجهة نحو المنزل كانت تفكر بكل ما يحدث، لا بد أنه يشك بها، يحسب أن مرسل العلبه عشيقها السري، لا بد أنه يشك بها ويمهلب هذا المجنون الذي اقتحم حياتها دون إذن منها، قد يهدم دعائم منزلها المتهالك أيضاً، ماذا لو اتهمها حسام بالخيانة، سيأخذ حضانة الأطفال منها، سيخبرهم بأنها أم سيئة اختارت قلبها وفضلته على أولادها، هي التي تحملت خيانتها وكل عقده النفسية في سبيل أن يهنأ أطفالها بحياة مستقرة.

أوقفت السيارة بسرعة عند بوابة المبنى، كان مهلب يقف هناك يتكئ على سيارته بتملل فصرخت وهي تضرب على المقود:

كيف يتجرأ هذا المخبول على الوصول إلى هنا؟

صفت السيارة بطريقة خاطئة وترجلت منها وهي تغلق بابها بقوة

لم أنت هنا، كيف تسمح لنفسك بمطادرتي على هذا النحو؟

أبتسم لها وهو يخطو نحوها بهدوء.

- تأخرت على الموعد فقلقت عليك، ثم إن اللوحة بانتظارك.

- أتريد تخريب حياتي، ماذا تريد مني يا هذا؟

- وكأنك تملكين حياة يا رهف، أنت لم تعرفي معنى الحياة بعد، أنت أشبه بطفل دخل غيبوبة ثم صحا بعد عشرين عاماً، وأنا من سيعيدك لهذا العالم، أنا سبيل خلاصك من هذه الغيبوبة والكابوس.

- بل أنت الكابوس الوحيد الذي أعرفه، اتركني لأعيش حياتي كما أريد.

اقرب منها واضعاً زهرة بيضاء - استلها من جيبيه - بين خصلاتها.

- سأتركك حين يكون هذا ماتريدين حقاً.

أخذت الزهرة من بين خصلاتها وسحقتها تحت أقدامها.

- أرجو أن يكون هذا دليلاً كافياً.

الساعة تشير إلى العاشرة، لا يزال حسام خارج المنزل حاولت الاتصال به لكن بلا جدوى، فكرت بكل الحلول، طهت الطعام ولعبت مع طفليها دون أن يتوقف عقلها لدقيقة، بعد أن تأكدت أن مُهاسب هو موزع تلك العلب وأن لا علاقة لزاهد بما يحدث لا بد لها أن تصارح حسام، لتدفع الشك عنها، لا تريد أن تحرم من أولادها، ستتوسل إليه أن يصدقها، سيرفع أوراق علاجها النفسية ويثبت عدم أهليتها، ماذا لو عرف بما حدث في المدرسة، إن أحضروا تلك المعلمة ستثبت عدم أهليتها، بدأت تضطرب أكثر فأكثر، أخذت تتجول بالشقة في محاولة لقطع دابر تفكيرها، عاودت محاولة الاتصال بحسام بلا أي جواب منه، وصلتها رسالة أفرعها صوت الهاتف وسط الهدوء الذي

يعم المنزل، فأسقطته من بين يديها كانت تقف بالقرب من المخزن حين انحنت لالتقاط الهاتف لمحت أن الضوء لم يطفأ بالداخل، لا بد أنها نسيت إطفاءه، فهي تنسى كثيراً هذه الأيام، حين فتحت الباب تذكرت الحقيبة في آخر مرة، تركت هاتفها جانباً وأبعدت الحاجيات بحثاً عنها، لم تعدها آخر مرة لمكانها فوصلت إليها بسهولة، حملت الكثير من الأغراض من منزلها القديم، مقتنيات كانت تعني لها الكثير لم تستطع تركها، هي المرأة التي تحوكت من ذكرياتها دثاراً كي تدفئ أوصالها المرتعدة من الوحدة، بحثت عن مقص أو أداة تساعد على فتح الحقيبة، بعد معاناة طويلة قررت أن تمزقها بسكين، حتى لو غضب حسام فمن حقها معرفة ما هذه الحقيبة الغريبة المزروعة في منزلها، بعد أن وصلت لمحتوى الحقيبة وجدت أن لا شيء يدعو لإغلاقها بهذه الطريقة، لا بد أنه خشي من عبث الأطفال بها وإفسادهم الأوراق التي كانت تحوي عدداً من عقود قديمة لشركته وعدداً من عقود وأوراق أخرى لم تفكر بقراءتها، أتت بحقيبة جديدة لنقل الأوراق والمستندات، تأكدت من خلو الجيوب جميعها، بين تلك الكومة لفت انتباهها ورقة بدأت بالبسملة، لا عقود هنا تبدأ بشيء كهذا بل إن جميع الحروف عربية، عقد زواج، توقيع حسام ونادية.

بالتأكيد أن غضبها الآن غير معنسي بغيرة الزوجة على زوجها، هذا ما باتت تقنع به كرامتها الجريحة طوال الليل وهي تنتظر قدومه، زاد توترها وهي تروح جيئة وذهاباً، خشيت أن تخرج نحو الشرفة، تحت كل هذه الضغوط يمكن أن تستسهل أن ترمي بنفسها خارجاً، طلب منها الطبيب أن تتعد عند بدء حالة التوتر لديها عن أي أداة جارحة أو أي شيء قد يسبب لها الضرر، بدأت الروية تنعدم أمامها تكورت كجنين، أغمضت عينها، المطار، فستان زفافها الأبيض، أول خطوة لها على هذه الأرض، هذا البلد الذي أخذ منها كل شيء ووهبها ورقة تتيح لها المرور لكل دول العالم، وثيقة تضمن لها المستقبل دون أن تخلصها من برائن عقد الماضي، الليلة الأولى بأحضان حسام، صخر قطعة حمراء تصرخ في أحضانها، يبكي فتبكي معه، ود في أول يوم مدرسة، حسام يزار فوقها، ينهي بطولته ويتنحي لينام مثل صنم، زاهد، صفعته الاخيرة و.....

- رهف..

كان الصوت مرتجفاً، مذعوراً، فتحت عينها وهي لا تزال متكورة، شعرت بآلام حين حاولت فك جسدها، كان يقف أمامها مرتعشاً فيظهر صوت ارتعاشة بحركة الورقة بيده، تركتها على الطاولة عمداً ليدرك اكتشافها دون حاجة للحديث معه.

نظرت نحوه مطولاً دون أن تقول كلمة واحدة، تركت مكانها وتوجهت نحو غرفتها، لم تكن تعي ما تفعل حقيقة الأمر، ارتدت معطفها فوق ملابسها حملت حقيبتها وخرجت من المنزل دون أن تنيس بحرف..

بدا كل شيء هلامياً، الكون يتموج ببطء، ظهرت السماء لها متهدلة
وقريبة جداً، كل شيء متضخم ومتورم، استمرت بالقيادة حتى وصلت
مبنى الجامعة القريب من مدرسة ولديها، أوقفت السيارة. بمكان خاطئ
وترجلت منها، جلست على الحشيش المقابل للجامعة، بدا لها زاهد في
وجه أحد الطلاب المتوافدين، كان يشبهه لدرجة كادت بها أن تركض
نحوه مرتمية بأحضانه، تطلب منه أن يعيدها بعيداً إلى تلك الشقة الكئيبة،
لتقبل رأسه وترضى بخيانتته، من السهل أن تغفر خيانة من تحب، ستجد
بالعشق عذراً له، ثم ماذا؟ فقد خانها لمرة واحدة، بينما يخونها زوجها
منذ أعوام، كانت ستقول إن لصديقه قميصاً مشابهاً لقميصه، ستعطيه
أعلى ما تملك... غفرانها

تنبهت لوجود ظل يقترب...

- تقولين بأني مجنون، في رأيك من الأجدر منا بهذا اللقب الآن...

شعرت ببركان يستعر بداخلها وهي تنتفض واقفة.

- من أنت أخبرني من أنت لا بد أنك واحد من الجان، كيف لك
أن تكون دوماً على معرفة بمكاني، هل أنت عميل مخبرات؟ رجل
عصابات، من أنت بحق ما تؤمن به؟

- اهدئي يا رهف..

- كيف لي..... ومنذ أن وضعت عليك السوداء المشؤومة تلك
أمام منزلي وحياتي تنهار أمامي.

- عن أي علبة تتحدثين في كل مرة؟

- كفاك إنكاراً وكذباً.

- أحبك نعم.. أتبع كل ما يعينك منذ أول مرة لمحتك عيناى،
أعيش حياتي على أمل أن تكوني لي وأنا واثق من أن هذا ما سيحدث،
لكن صديقي لا أعلم شيئاً عن تلك العلب التي أصبت بهوسها.

حاولت أن تفهم كلماته، أعادتها داخلها أكثر من مرة رددتها، لا
أعلم شيئاً عن تلك العلب رددتها عدة مرات.

- زاهد إنه زاهد.. هو هنا إذن جاء لأجلي زاهد يحبني.

- لا أحد يحبك سواي يا رهف. كفي عن هذا الهراء الذي تدخلين
نفسك فيه.

نظرت نحوه نظرة خاوية، وتوجهت نحو سيارتها انطلقت بها
نحو المنزل، ستذهب لمنزلها وستبقى قرب عتبة الباب حتى يأتي بزهرة
جديدة، عندها ستحدثه ستلتقي بزاهد مجدداً.

الفصل الحادي عشر

دخلت المنزل فوجدته خالياً، حمدت الله أن سيكون لها مطلق الحرية
لانتظار العلبة دون تشويش، تركت باب الشقة موارباً، أخذت كرسيًا
وجلست بالقرب منه، وضعت الحاسوب على ساقها وبدأت بتخمين كلمة
السِر، خطر لها خياران، نسبة لكون الحرف الثاني هو الالف بالانكليزية فقد
تكون الكلمة اسم زهرتها الملعونة تلك، أو اسم زاهد مضافاً لرقم أو حرف
آخر، نظرت نحو تلك النقاط السوداء بتحد وفرح، فقد كشف سرها أخيراً.

لم تدم سعادتها طويلاً حملت الدقائق القليلة بعدها خيبة لها، لم تجد
الكلمة التي تريد، حاولت عدة محاولات تتلاءم مع شخص زاهد، رقمه
المفضل، شهر ميلاده و.....

نفدت عدد المحاولات المسموح بها، عاودت النظر إلى الساعة،
تجاوزت الوقت المعتاد لوصول العلبة، مع هذا لم تغير مكان جلوسها
ولم تفكر حتى بغلاق الباب.

أرخت جفنيها قليلاً، لكنها تحفزت بعد سماع قرقرة قرب الباب،
نهضت بتأهب تسارعت نبضاتها بتوتر.

لكنها خيبة أخرى، جارتها العجوز عادت من رحلتها.

– كيف أنت يا ابنتي، لم تتركين الباب مفتوحاً، وجهك شاحب هل
أنت مريضة

كأن الكلمات سُرقت من شفيتها.

welcome back –

رغم أنها كانت تأمل أن يكون زاهد هو من يقف على عتبتها الآن
إلا أن وجود هذه المرأة الحنون أهداها إحساساً بالطمأنينة كانت بأمس
الحاجة إليه، شيء ما في حضن هذه المرأة يعيدها لأحضان والدتها،
هناك طاقة مختلفة تدغدغك في حضن النساء اللاتي عرفن الأمومة، فما
أن تصبح الأنثى أمّاً ولو لطفل واحد، حتى يجتمع بها طيب الأرض
ودفء الشمس، يدخل حنانهن كأيد خفية تمس روحك لتطبطب
عليها.

انهمرت دموعها كشلال، غصّت الكلمات بحنجرتها كأنها نسيت
اللغة، كانت تريد أن تخبرها بكل شيء، دفعة واحدة لكنها فشلت،
تقبلت فشلها هذا، فهو ليس الأول إطلاقاً، ولن يكون الأخير أبداً.

ثلاثة أيام لم تر وجه حسام خلالها أبداً، لم يملك الشجاعة الكافية
لمواجهتها أو حتى مجرد سماع صوتها، يغلق السماع، حين تكون هي
من ردّ على الهاتف، فترك طفليها يجيبون في المرة الثانية، يتحدث مع
صخر وود، يسألها عن أحوال المنزل، علل غيابه برحلة عمل، كانت
هذه المدة كافية لها لتوكيل محام، ستطلب الطلاق منه، حمدت الله أنها
التقطت صورة للعقد بهاتفها النقال، في البداية تخيلت أنها ستثور في
وجهه، تبكي، سيأخذ الورقة ناكراً ويمزقها أمامها، لا تعرف كيف

تحولت إلى قطعة ثلج، اكتسحها البرود وتقبلت كل شيء بصمت، قد يكون هذا ما ممتته دوما دون أن تشعر أن تتركه دون إحساس بالذنب، دون أن تكون في يوم ملامة من الأهل أو من طفليها بعد نضوجهما، بدا لها كل شيء الآن مكتملا كحللم، ستترك حسام، لن يرحمه القانون هنا، سيكون لها كامل الحرية بالعيش مع أطفالها، ستجد زاهد، وتعيش معه الحياة التي لطالما أرادتها معه، لا بد أنه تغير الآن، هذا مؤكد وإلا لم تترك كل شيء وأناها هارباً، لم يزين بالزهور عتبة شقتها، الشقة.. خَطر لها أن تطلب من المحامي أن يطالب بهذه الشقة كمسكن لها ولأولادها، يا لمصادفات القدر، هذا المكان الذي كرهته ما أن وطأت عتبة، الآن هي من يتشبث به، كيف حولت تلك العلبة السوداء هذه الشقة من سجن إلى بوابة أمل جديد، ستبقى هذه العتبة ملجأً روحها حتى يمرها هو، تراه وتمسكه حينها فقط ستترك علبة الكبريت هذه لتسكنه هو.

عاودت الدخول لذلك العالم الوهمي ستطلب من صديقتها مساعدتها بالبحث عن زاهد، لا بد لها أن تدلها على خيط للوصول له، لزوجها العديد من المعارف ولطالما فتحت أمام فضولها الأبواب المغلقة.

سألت الله أن تكون متواجدة، لا صبر لها للانتظار أكثر.

- مرحباً، أحتاجك بموضوع مهم جداً، راسليني ما إن تقرئي رسالتي

ما هي إلا ثوان معدودة حتى ظهرت علامة تدل على قراءتها الرسالة وبداية كتابة الرد.

-كيف حالك يا رهدف، قلقت عليك في المرة الماضية، كيف أنت الان؟

- جيدة جداً، أفضل مما تتوقعين ولكني بحاجتك لأكون أفضل.

- إن كنت قادرة على جعلك بحالة أفضل فلن أذخر جهدي.

- أريدك أن تساعدني بالعثور على زاهد.

-!??

- ألم تقولي توأ أنك لن تتدخري جهداً.

- وهل المطلوب مني أن أجوب المقابر بحثاً عنه.

- كلا، زاهد هنا، لم يمت متأكدة من تواجد ههنا، فقط أنا بحاجة لشخص يدلني على عنوانه.

- يبدو أنك في حالة صدمة حقيقية، رهدف أنت متزوجة، تتركين الاهتمام بزوجه وأطفالك وتطاردين شبحاً؟

- أنت لا تعرفين شيئاً، سأشرح لك فيما بعد فقط عديني بأنك ستساعديني.

- لنفرض أنه على قيد الحياة هل ستهجرين زوجك وأطفالك، وتضحكين بكل شيء لأجله، لنفرض أنك عثرت عليه، هل ستعاودين اختيار الظالم نفسه؟ أتحمسين أنه تغير؟! لا يا صديقتي كل على حاله، لم يتغير سوى غلافه الخارجي ليتلاءم مع متطلبات هذه المرحلة، لا يزال

زاهداً ذاته، كل ما في الأمر أنه الآن أكبر وأوضح، زاهد الذي حاول
سلبك عذريتك يا صديقتي طمع وكبر فسرق هو وأقرباؤه عذرية
الوطن، نحن نغضب منهم كل يوم نصحو صباحاً فنغسل الجنابة، ثم
نستمع لمحاضراتهم بالعفة، ونردد معهم مفاهيم الشرف، كدعاء قبل
الطعام، لنضمن وجوده على الطاولة غداً، لنضمن امتلاكنا للطاقة في
المساء.

دون أن تجيب بكلمة واحدة، أغلقت حسابها مجدداً، لا حاجة لها
لسماع المزيد، لن تسمح لأحد بالتأثير على قناعتها مجدداً، لن تعيد
أخطاء الماضي، هذه المرة لن يجردها من حبها أحد.

سمعت صوتاً بالقرب من الباب، ركضت مباشرة، فتحت الباب
لتجد أمامها شاباً بهيّ الطلعة، مبتسماً مع إنعكاس فرح حقيقي على
عينيه.

- مرحباً كيف حالك؟

عقلها مشغول جداً، لديها العديد من الخطط لا مجال لمجاملة غريب
الآن.

- تفضل كيف لي أن اساعدك....

نظر نحو رقم الشقة مجدداً وطالع ورقة كانت بيده.

- لا بد أنك صديقتها.

- عفواً صديقة من، لم أفهمك؟

- نادية ال -

أكملت الاسم له، وهي تعيد منظر الاسم على عقد زواجهما.

- المنتصر.. كلالا تقطن هذه العاهرة هنا.

بدت صدمة ردها جلية على وجه الشاب، فقال متلعثماً:

- لكنها أعطتني يوماً هذا العنوان، وكنت أرسل إليه هدية خاصة منذ أيام، ألم تلحظي ورود علبة ورود على بابك.

بدأ جسدها بالارتعاش، كانت هذه الشقة عشهما إذن، ذات الشقة التي أشير إليها في جلسة النميمة تلك، هاهي تلتقم بقايا هذه المرأة مجدداً، تركت لها فتات رجل، منزلاً خرباً، وأضغاث أحلام.

شعرت أنها تحاط بغمامة، تسلق جليد على جسدها، ارتعشت بقوة، صوت صفعة، لحظة وداع أمها، عمتها تحمل فستان زفافها، زاهد، لوحة مُهلب...

خارت قواها، وخرّت جالسة، وهي تضم جسدها بيديها وتدندن ((احنه مشينا مشينا للحرب.....))

تمت

7/6/2017

میسو بوتامیا

Tele: @Arab_Books

خوفه من الجلوس بمكان عام، مع فتاة وهو ابن رجل
دين، لم يمنحها منفذاً غير شقة صديقه التي اقترحها هو،
ما إن خطت قدماها داخل الشقة حتى أيقنت ملكيته لها،
قميمص ارتداه يوم أمس، قنينة مشروب روحي، فارغة،
كأسان متسخان أحدهما مزين بلون شفاه عند حوافه،
حملت الكأس بين يديها، شعرت أن الدم قد هجر
عروقها، بدأت بالصراخ: - تتحدثون عن الدين، تدرس
فلسفته صباحاً، تجادل به، يخرج والدك ليأمرنا بالمعروف،
وينهانا عن المنكر، طبعاً فهو يود أن يدخره لولده الوحيد،
وكر رذيلة، تدخلني وكر رذيلة يا زاهد.

ISBN 978-2-843090-55-4



Tele: @Arab_Books